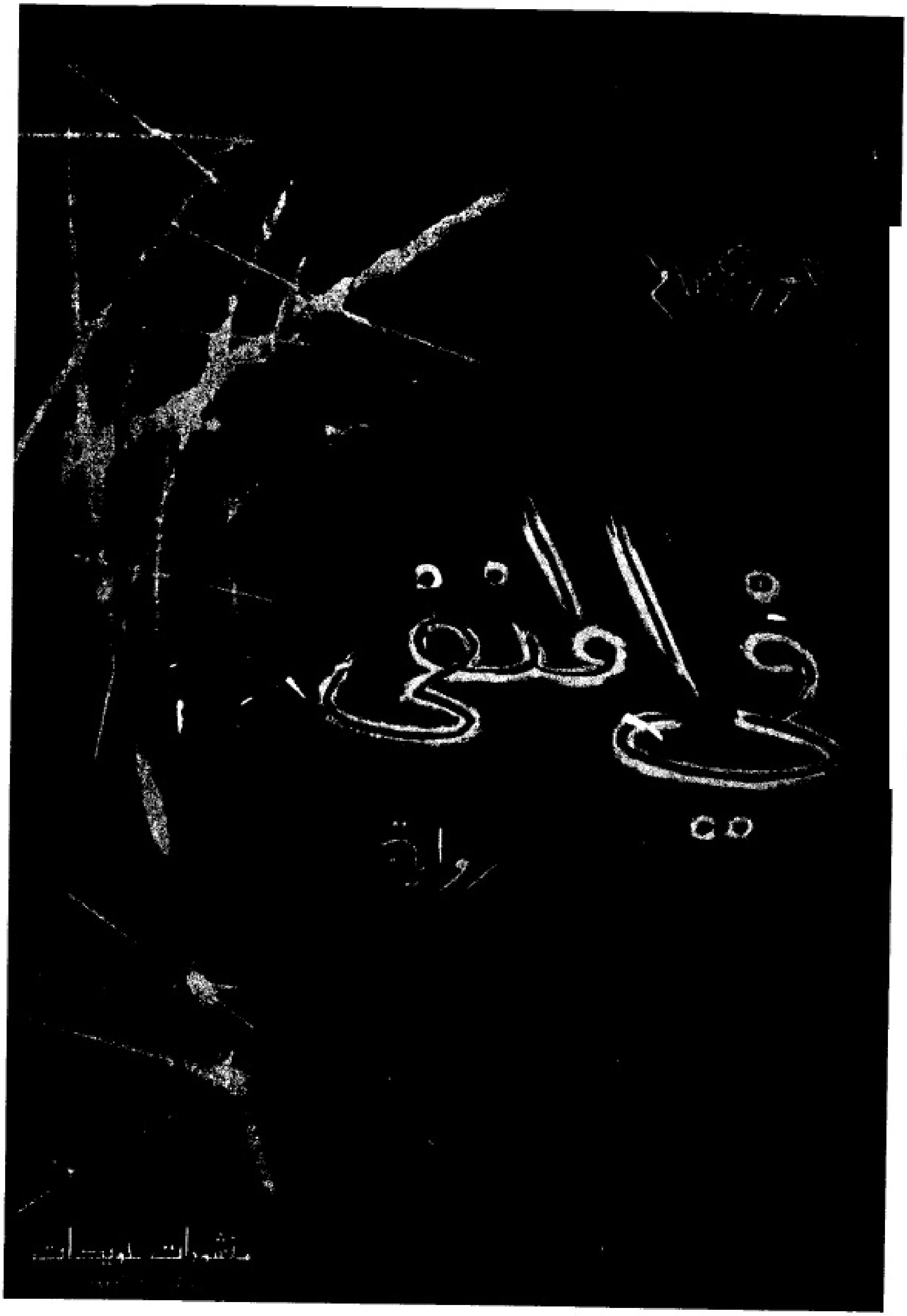

رواية
منشورات عويدات

الطبعة الأولى : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢

جورج سالم

في المنفى

رواية

إلى ل...

القِسمُ الأول

فلنتخيل عدداً من الأشخاص مكبلين بالاغلال ومحكومين جميعاً بالاعدام ، يُنحَر قسم منهم كل يوم أمام ناظر الآخرين ، ويرى الباقون وضعهم الخاص في وضع أمثالهم ، وينتظرون دورهم وهم يتبـادلون النظرات بقلوب محترقة بالألم ، ونفوس فاقدة الأمل :

هذه هي صورة الوضع البشري .

باسكال

١

كان المطر يتساقط بغزارة فوق الارض الترابية ، فتلتهم قسماً منه ، وترسل قسماً آخر رذاذاً يتناثر هنا وهناك ، وكانت الريح شديدة تعصف بالمارة وتتلفح بثيابهم ، وقطرات المطر التي لا لون لها تتصل على مدى البصر بغيوم سود داكنة ، تحجب شمس الشتاء وتحيل ضوء النهار الى ضوء رمادي معتم .

ـ هذه هي البلدة !

قال في نفسه : يبدو أنها صغيرة جداً بل اصغر مما وصفوها لي . شارعان كبيران يتصالبان عند الساحة العامة الواسعة ، وعلى كل من الجانبين مخازن صغيرة تلتصق جدرانها بعضها ببعض فتؤلف كتلة حجرية ممتدة طويلة ، والبضائع تطل برؤوسها من المخازن فتسرق من الشارع قسماً من هنا وقسماً من هناك ؛ هذا بائع الفاكهة وذاك العطار ، وهناك

السمّان والمطعم ، والى جانبه الفرن الاسود ، وفي الصف المقابل بائع الأقمشة والعطور وحلاق المدينة والمصور ...

– فلأسرع قليلًا !

نظر فيما حوله ، فلم يرَ إلا بعض افراد يجتازون الشارع من جهة الى اخرى .

– عجيب أمر هذه البلدة .

لقد قالوا له إنها صغيرة بين البلدان وعجيبة كذلك ، ولكنه لم يتخيلها بهذا الصغر . نظر الى الساعة البيضاء القائمة في اول الشارع الكبير ، فوق عمود من النحاس قد اسود لونه ، فوجد انها تشير الى الواحدة ، وقدّر ان الطريق كانت طويلة جداً الى هذه البلدة المقطوعة عن العالم المنزوية في منبسط من أرض لا تحدها حدود .

توقف قليلًا امام المقهى القائم في الزاوية اليمنى من زوايا الساحة العامة . كان يحمل في يمناه حقيبة سفره الكبيرة وفي يده اليسرى حقيبة اصغر منها تضم بعض الكتب والمجلات والاوراق . وخطا خطوتين فكان في وسط المقهى .

كان المقهى خالياً ، وكان رجل ضخم الجسم ، لعله صاحب المقهى ، يجلس امام منضدة كبيرة عالية في احد الاركان .

– أهلًا وسهلًا .

ـ بكم ، لقد قدمت الساعة الى هذه البلدة بعد أن قطعت المسافة الكبيرة الطويلة بين مدينتي وهـذه البلدة على أربع مراحل متتالية .

ـ الحمد لله على السلامة . انت المعلم الجديد فيما يظهر ؟

ـ نعم ، ولكن من أين عرفت ذلك ؟

ابتسم الرجل الجالس على كرسيه الكبير : يبدو أن هذا الفتى ما يزال غراً ، ولعل هذه هي الرحلة الاولى التي يقوم بها في حياته .

ـ ليس في بلدتنا من اسرار وليس فيها من غريب إلا المعلم الذي نتوقع ان ترسله وزارة التربية بعد ان مات المعلم الكهل. أما بقية الموظفين فهم جميعاً من ابناء البلدة .

ـ اذن فأنا احل محل المعلم المتوفى ؟

ـ نعم . انك تحل محـله ، والجميع يعرفون ذلك ويتوقعون مجيئك بين حين وآخر .

ـ والمدرسة بحاجة الى معلم منذ وفاته ؟

ـ نعم ، منذ أكثر من شهر ، وما أهمية ذلك ؟ ان الامور تسير على ما يرام ، ولم نفكر قط بإرسال كتاب الى الوزارة أو الى أي مسؤول. نحن نتكل على الوزارة ، وقلما نسيت بلدتنا ، كل مـا هنالك ان تعيينك قد تأخر شهراً أو بعض شهر .

– ألم تطالبوا بفتح مدرسة اعـدادية لمن انهوا دراستهم الابتدائية ؟

– لم تفتح لنا الوزارة مدرسة، ولم نطالب نحن بذلك. وعلى كل فليس هناك من حاجة الى ذلك كما سترى بعد فترة .

تطلع الشاب في ارجاء المكان ، ولاحظ أنه ما زال ممسكاً بحقيبته ، شارداً عنها ، فوضعها على الارض « ما أغرب هـذه البلدة القائمة في هذا الركن القصي من العالم ، لقد بحثت عنها في كل الخرائط التي وقعت تحت يدي فلم أر ذكراً لها فيها ! » .

واستدار الشاب قليلاً :

– اين اجد فندقاً ؟

– لا غرباء هنـا ، فلا فنادق عندنا . ليس الا هـذا المقهى وفيه غرفة فارغة استطيع اذا انت اردت ان اسمح لك بالمبيت فيها هذه الليلة ، ولكن نومك فيها سيكون مضطرباً، اما اذا اردت ان تذهب الى غرفتك فهي جاهزة منذ زمن .

– غرفتي جاهزة ؟ ؟ ؟

– اقصد غرفة سلفك المعلم الذي مـات منذ حين . المعلم ... آه ، إنني أنسيت اسمه ، وعلى كل حال فاين

الاسماء لا تفيدنا في شيء ، وكل انسان ُيعرَف بنوع عمله وأنت ستسمى المعلم منذ الآن .

– غرفة المعلم ! !

– انها غرفة تقع في آخر هذا الحي في الجهة اليمنى . ولقد شغلها هذا المعلم طوال حياته . أرأيت ؟ ان كل شيء مرتب ترتيباً صالحاً في بلدتنا وقد فصلت المنازل فيها على قدر حاجتنا دون أية زيادة .

– دون أية زيادة !

وجد الشاب نفسه يلفظ هذه الجملة بعد شرود لا يدري كم امتد ، خيل اليه خلاله انه يرى شريطاً سينمائياً تتلاحق فيه الصور مسرعة فلا يكاد يتوقف عند واحدة حتى تدهمه التالية كأنها الشلال ، وشعر ان كل ما يعرفه من معارف ومعلومات قد اصبحت غريبة عنه في هذه البلدة العجيبة .

وجاء صوت الرجل الجالس غير بعيد عنه يوقظه من شروده :

– كان بودي أن أقدم لك فنجان قهوة أو كأساً من الشاي (سرّ الشاب لهذا العرض لأن البرد كان قد جمّد أطرافه) مع انه ليس من عادتنا ان نقدم شيئاً مجاناً لأحد ، غير انك ُتعتبر ضيفاً في بلدتنا لبضع ساعات ؛ ولكن خادم المقهى ذهب الى بيت الحاكم ليقضي له امور

البيت على عادته صباح كل يوم ولم يرجع الى الآن .

– حسن ، حسن ، لا حاجة الى ذلك .

– أرى جيداً انك متواضع وقنوع ، وهذا يشير بوضوح الى انك ستعيش بيننا بسلام ، قد لا نسر للغرباء ولكننا نتحملهم راضين ، اذا وُجدوا ، شريطة ان يظهروا لنا ما نريده منهم من مودة وهدوء ... وصمت .

قال الكلمة الأخيرة بتأنٍ ومدّ صوته وهو يلفظ حروفها ، فلم يدرِ الشاب أكان يشير بذلك الى أهميتها أم الى أن الحديث بينهما قد انتهى . فمال الى حقيبته ليحملها وهمّ أن يودع الرجل .

– ولكن أين أجد مفتاح هذه الغرفة ؟

– لا مفتاح للغرفة ، سر حتى تبلغ آخر الحي ، وهناك ستجد غرفة وحيدة ، كاملة الأبواب والنوافذ ، سليمة الزجاج ، فادخلها وسترى ان كل شيء جاهز فيها ، واذا أردت الحيطة فاغلقها من الداخل ، فلها رتاج متين جداً .

استدار الشاب بعد أن هز رأسه وهو في حيرة من أمره ، ومضى يسير وكأنه يسير في نومه . كان صوت الرجل يرن في أذنه ، وجاءته كلمات أخيرة لعل الرجل نسي ان يقولها له :

– احذر النهر الكبير القريب من غرفتك في آخر الحي .

وغمَم الفتى في نفسه : « النهر الكبير ، لعل هذا النهر يبرر قيام هذه البلدة في هـذا المكان من الارض ، فليس ينطبق عليها أي سبب من الاسباب التي توجد المدن ».

تابع طريقه بعد أن اجتـــاز ساحة البـلدة ووجد ان الطرف الثـــاني من هذا الشارع الممتد على طول البلدة لا يختلف عن الطرف الاول ، فمخازنه ودكاكينه تشبه تلك المخازن والدكاكين ووجد فيها جميعاً البضائع ذاتهـــا التي وجدها في المخازن الاولى ، وتوقف قليلاً بعد أن سار بضعة امتـار ينظر الى الشارع الذي يتصالب مع الشارع الرئيسي ويشبهه شبهاً تاماً ثم تابع سيره حتى انتهى الى آخر الشارع وهناك وجد الغرفة اليتيمة التي حدثه عنها صاحب المقهى ، وتعرفها بيسر ، فأيقن ان هذا الرجل صادق .

ولج الغرفة ووضع الحقيبتين على الارض واقتعد كرسياً قديمـــاً رآه أمامه ، وأخرج من جيبه ورقـة مطوية قد اتسخت اطرافها ، فبسطها أمامه وقرأها بتمهل مع انه كان يقرؤها للمرة العشرين أو أكثر ، وانتهى الى الجملة التالية فتوقف عندها : « يعين في بلدة ... المعلم السيد .... ».

– هذه هي البلدة اذن !

وطالت جلسته على هذا الكرسي . تطلع فيما حوله فلم يجد الا الريح العاصفة والمطر الماطل ، وأحس بثقل ينوء

على نفسه ويأخذ عليه حواسه : أهي الغربة أم الوحدة ، أم هذه البلدة النائية التائهة فوق الارض ؟ وشعر انه سجين في سجن لا يعرفه ولا يعرف سبباً لوجوده فيه ، واستدار فيما حوله فلم يجد الا جدران الغرفة وكل ثقب فيها عين تسخر منه وتبتسم له وكاد يصرخ لكنه تجلد قليلاً وأراح يديه المتعبتين على ركبتيه كأنه يحنو الى ذاته ويدفع بمنكبيه غربة قاسية لم يعتد عليها ، وأحنى رأسه الى صدر ما فيه غير قلب صغير لمّا يتفتح على العالم بعد ، وخيل اليه ان ما حفظه وتعلمه وسهر الليالي الطويلة في سبيله قد غاض في ركن قصي من نفسه وحلت محله ظلمة لا أبعاد لها . كان متعباً من رحلته الطويلة تلك وكان السفر قد أنهك قواه وامتد الصمت من حوله طويلاً ، فراح يستعيد كل ما رأى وسمع . ثم غفا برهة من الزمن ، وحين فتح عينيه وجد ان الساعة ما تزال تشير الى الثالثة وتمنى لو انها طوت النهار والليل بكامله . تطلع من النافذة فرأى ان المطر ما يزال ينهمر بغزارة وان قطراته المتتالية التي لا لون لها ما تزال تصل الارض بالسماء الداكنة فعاد وأغفى من جديد .

٢

بدأ الناس يرفضّون من المقهى حين قاربت الساعة الثامنة مساء ، وفي الساعة الثامنة والنصف لم يبق فيـه أحد فقد غادره الجميع قاصدين بيوتهم المنتشرة في اطراف البلدة .

شرع الخادم يغلق ابواب المقهى الخشبية وحين انتهى من اغلاقها جميعاً ترك باباً صغيراً جداً مواربـاً لا يكاد يُرى في احد الاطراف فلم يغلقه، ودخـــل الى المقهى فعمل على ترتيب الطاولات ومسحها ورفع ورق اللعب عنها، ثم رصف الكراسي ورتبهـا ومال الى الارض فمسحها كلها ثم قضى اخيراً الى مطبخ المقهى يساعد الطاهي في عمله .

وجلس الرجل الضخم صاحب المقهى جلسته المعتادة أمام طاولته العالية وهو يتثاءب ويفرك عينيه ليبعد عنه النعاس . كان يبدو عليه انه استيقظ منـذ مدة وجيزة وجـــاء الى المقهى ليشرف على السهرة فيه . والواقع انه دأب على هذه العادة منذ زمن لا يعرفه ، فكان ينام بعد الظهر من كل

يوم ، في غرفة له فوق المقهى ويترك تدبير الامور لخادمه والطاهي. وكان هذان يقومان بعملهما المألوف بدقة وانتظام منذ زمن بعيد حتى ليعجزان عن تقديره . وما أن لمحه الخادم حتى همس في أذن الطاهي بكلمة صغيرة وسرعان ما ترك هذا عمله وأعد فنجاناً من القهوة المرة قدمه للخـــادم الذي حمله الى صاحب المقهى وعاد الى المطبخ بسرعة يساعد زميله على عادته مساء كل يوم .

وفي الساعة التاسعة قدم رجال أربعة يرتدون زياً واحداً وأخذوا أماكنهم في صدر المقهى وشرعوا يستخرجون آلاتهم الموسيقية ، وهمس الطاهي في اذن الخادم يقول :

– إنها الساعة التاسعة تماماً .

فأجابه الخادم :

– هل قدم الموسيقيون ؟

– نعم . اعطني العشاء للمغنية فأنا أسمع وقع اقدامها على الدرج الخشبي .

ومـا كاد ينهي جملته حتى أطلت المغنية السمراء بثوبها الاحمر الطويل ، وقد وشي بجواهر زائفة لماعة لم تخف ، على كثرتها ، قدمه ورثاثته . وبعد ان أشارت بحية صاحب المقهى مضت تواً الى طاولة صغيرة في أحـد أركان المقهى ، اعتادت ان تجلس أمامها كل ليلة لتناول عشائها قبل سهرة الليل .

وسارع الخادم يحمل الصينية التي قدمها له الطاهي فوضع ما عليها من صحون وخبز على الطاولة وعاد من حيث أتى.

★

كانت ألحان صاخبة تملأ جو المقهى ، وكان قرع الطبل يهز الجلوس القلائل الذين ألفوا أن يسمروا كل ليلة في ملهى البلدة الوحيد . وكان هذا الملهى بالنسبة اليهم سفينة تمخر بهم خارج عالمهم المألوف فيسمرون ويعبون كؤوس الخمرة ويستمعون الى الاغاني ، ومع ان هـذه الاغاني تتردد كل مساء لم تتغير منها كلمة ، ولم يتغير فيها لحن ، فقد كانوا يجدون فيها بعض المتعة وشيئاً من الطراوة في البـلدة التي يغمرها الجفاف .

ولعل شعور رواد الملهى بأنهم يشكلون فريقاً من الناس أتيح له مـــا لم يتح لغيره من ارتياد هـذا الملهى الليـلي الوحيد ، ما كان يملأ رؤوسهم زهوا وتيهاً ، فلكل الناس الحق في أن يفـدوا الى المقهى طوال اليـوم يتحدثون ويشربون القهوة والشاي ويدخنون مـا شاؤوا ان يدخنوا ثم لا يلبثون ان ينصرفوا مساء مع اغلاق المقهى. أما هم ، القلة المختارة ، فالملهى الليلي لهم وحدهم : عالم كامل متناسق المعالم يلجونه كل ليلة لا تطأ حرمته اقدام احد من الناس سواهم ، هو عالم مغلق عليهم ، خـــاص بهم ، قد تصل اصوات موسيقاه الى فريق من الناس ، وقد يهمس بعض

الشبان بما يجري فيه سراً ، ولكنه لهم وحدهم ، وليس ثمة من يتجرأ على دخوله غيرهم . هذه الفئة القليلة المهيمنة على أمور البلدة قد اتخذت من الملهى مكان سمرها وساحة مجدها ، وتشمل هذه الفئة قاضي البلدة والطبيب والصيدلي وتاجرين كبيرين يقومان بتجهيز الدكاكين بالبضائع التي تحتاج اليها والمزارعين الثلاثة الذين يملكون الاراضي الزراعية الممتدة على ضفة النهر الثانية كلها وعدداً من كبار الموظفين واتباع الحاكم الذي يصرف أمور البلدة .

وقبيل منتصف الليل اختفت المغنية السمراء التي كانت تنشد على ايقاع الموسيقيين وألحانهم أغانيها المكررة ، فتجد فيها مع الحضور جميعاً نشوة تتكرر كل يوم . وغابت لحظات خلف ستار خشبي ممزق وأدرك الحاضرون أن الليل موشك ان ينتصف وهمس الصيدلي في اذن الطبيب الجالس الى جانبه :

- الرقصة الأسبوعية !

- فهز الطبيب رأسه دون أن يجيب. كان يعرف ذلك ويعرف كثيراً غيره ، ولكن الناس ألفوا الصمت وكانوا يتغذون به .

ومع اختفاء النور برزت المغنية من اعماق الظلمة كما يظهر في منبلج الصباح أول خيط من خيوط الفجر ابيض صغيراً باهت اللون وتعلقت بها الابصار. كان الجميع يعرفون ميعاد

هذه الرقصة ومعناهـــا ، وازدادت الاضواء قليلًا قليلًا ، وراحت المغنيـة ترقص متشحة بغلالة بيضـاء شفافة ، وهي تدور وتدور ويداهـا بين انبساط والتفـاف ، ثم أخذت تتعرى شيئاً فشيئاً ، فنزعت عنها الغلالة ورمت بهـا ارضاً والآلات الموسيقية تعكس أنين الجالسين ، ثم نزعت ما كان يخفي صدرها ، فاستبان جسدها الناعم اللدن . كانت رؤية المغنية تخدر الحضور وتثـير فيهم أعنف المشاعر فتند عنهم حركات وايماءات فيهـــا الكثير من الشوق والحمية ، وكانوا يتمايلون في مقاعدهم نشوة ، ويكبون على الكؤوس يتوعونها بأناملهم بعد ان فرغت حتى آخر نقطة فيهـــا ، والمغنية ترنو اليهم بمزيد من الدلال لتوزع عليهم نظراتهـــا بالتساوي وتتيـح لكل منهم ان ينهل نظرة من جسدهـــا العاري اللدن بعد ان انتزعت كل ما كان يستره . وصمتت الآلات فأدرك الجميـع آنئـذ بكثير من الألم ان الراقصـة قد انتهت وان وقت الانصراف قد حـان ، فقاموا معـاً وارتدوا معاطفهم شاعرين بضرورة الاسراع في ترك المكان والمغنية للحـاكم الذي يزور الملهى مرة كل اسبوع دون ان يشعر به احد او يراه انسان ليرى رقصة المغنية الاسبوعية ويمضي بها الى غرفتها على سطح المقهى ، ومع يقين الحضور بأن الحاكم يغـــادر الغرفة قريب الساعة الرابعة ، الا ان احداً لم يره ولم يتجرأ انسان على السهر لمعرفة ميعاد مجيئه وانصرافه .

كان الصمت يغلف اعمال الحاكم وتصرفاته في غرفة المغنية السمراء وليس من يدري أية مشيئة جعلت المغنية سمراء البشرة ملساء الجسم ، هل لحياة الليل التي تعيشها أثر في ذلك؟ أم ان شهوة الحاكم قد جعلت جسدها كما يرغب؟

ومع ان سنوات عدة انقضت عليها وهي تمارس طقوسها الليلية وتعيش متعة الزيارة الاسبوعية التي يتكرم عليها الحاكم بها ، الا انها لم تسمع صوته قط ولا عرفت نبرة صوته ، ولا استبانت خطاً من ملامح وجهه . كانت تسمع زفيره فقط ، زفير عاصفة عاتية تكتسح صحراء قاحلة في ليلة موحشة صرصر . ولطالما حدثتها نفسها ان تسأل الحاكم وان تحادثه وتمتدح حرارة يده وهي تعبث بجسدها الفتي وحرارة انفاسه وهي تلفح وجهها وتختلط بأنفاسها ولكن وصية أمها المغنية السابقة كانت تجلجل في صدرها وتطل عليها من كل ركن من أركان غرفتها الصغيرة :

ـ اذا كنت حريصة على ان تعيشي حياة طويلة فالزمي الصمت ، الصمت المطلق .

وهكذا كانت المغنية تستسلم للصمت استسلام سائر أبناء البلدة للصمت المطلق الذي يتجلى في حركات العيون والشفاه وفي رقاد الليالي الطويلة الصامتة .

٣

هذا هو النهر ...

انه ليجري أبد الدهر في هذا المجرى المستقيم ، وتتدفق مياهه الحمر بسرعة ثابتة ، وان لجريانه ايقاعاً كايقاع هذه البلدة الرتيبة ، اني لأقصده في أغلب الامسيات ، فايمم شمالي البلدة واسرح البصر في المدى الواسع الممتد على الضفة اليسرى منه . اراض شاسعة منبسطة يزرعها مالكوها الثلاثة قمحاً وشعيراً ، ليس فيها مبان ولا منازل ، بساط ممتد لا تحده جبال ولا هضاب ، يبدأ من حافة النهر وينتهي حيث لا تستطيع العين ان ترى .

هذه الضفة الموحشة الخالية من الناس والحياة، الا من بعض الفلاحين الذين يظهرون ويختفون كالظلال أحياناً ، منطلقي كلما ضقت بالبلدة واهلها ، وما اكثر ما اضيق بالبلدة واهلها . منذ اكثر من شهر وانا هنا اعيش الحياة المقدرة

لكل انسان غريب يفد الى هـذه البلدة كما يفد بنو البشر الى الارض .

وجوه جـامدة تبرز أمامي كل يوم في المدرسة الصغيرة ذات الصفوف الخمسة ، وغرفة الصف ذاتها بجدرانهـا المطبقة على من فيها وصمت البلدة عن كل تفتح ..

المطعم الصغير ذاته يطالعني ظهر كل يوم بوجباته المألوفة المكررة، وصحونه الفخارية التي تبدو كأن البلى لا يستطيـع ان ينالها ، وصاحب المطعم وزوجته يعملان صامتين في هذا المطعم الذي لا يكاد يتسع لأكثر من سبعة أشخاص .

وهذه الساعة الكبيرة ذات الناقوس العجيب ، انهـــا وحدها التي تنظم الحياة في هذه البلدة ، فعلى دقاتهـا تفتح المخازن وتغلق ، وتبدأ الدراسة وتنتهي ، ويعد الطعـــام ويؤكل ، وينام الناس ويستيقظون . ان صوت ناقوسها يلاحقني ، كما يلاحق كل انسان ، حيث كنت ، وأنـّى اتجهت ، وهي في حركتها الدائبة لا تعرف الكلال ولا التوقف ولا الراحـة كذلك النهر الدائم الجريان الذي لا يعرف تغيراً في سرعته ولا ازدياداً أو نقصانـاً في مائه ؛ فلا تعلو صفحته ولا تنخفض ولا يتسع مجراه ولا يضيق ، وبين الساعة تلك وهذا النهر تنضغط البلدة بما فيها على من فيها.

لست أعرف مـــاذا يجول في نفوس هاته الوجوه التي تطـالعني حين اسير في الشارعين المتصالبين الكبيرين أو حين

انعطف في الشوارع الفرعيـــة الصغيرة الضيقة ، ان وجوه الناس في هذه البلدة غائرة الى الداخل، منطوية على اعماقها . لم أر احداً يبسم لي حتى اليوم ، واذا صـادف ان ابتسم انسان فانما يبتسم لذاته وفي اعماق ذاته .

ومع ان رغبتي في التعرف الى الناس ومحادثتهم شديدة، إلا ان خوفي منهم أشد وأقسى ، انهم يبدون لي منطوين على انفسهم في هذه البلدة المنطوية على نفسها كأنها كوكب وحيد فريد لا يربط بسواه إلا بربطة التشـــابه الواهية ، وكل انسان فيه كوكب منفرد يدور صامتـــاً في مداره المحدود . لذا فقد أمضيت هذه الاسابيع منفرداً وحدي ، ويخيل اليّ أني سأقطع السنوات التي سأقضيها هنـــا غريباً منفرداً . لكم اتمنى ان احادث الفتيان في منصرفهم من المدرسة وغدوهم الى منازلهم ، ولكنهم جميعاً يتأبطون دفاترهم وكتبهم ويهرولون الى دورهم مؤلفين عالماً خاصاً بهم لا يستطيع احد اقتحامه . ولكم تمنيت ان اتعرف الى بعض الأسر فأزورها بين حين وآخر ، ولكن البيوت ، كل البيوت ، تفتح على اهلها وتغلق عليهم ولا مجال لقدم جديدة ان تطأها . هذا ما اشعر به ، ورغم اني لم احاول ان اطرق احد هذه الابواب ، إلا اني على مثل اليقين بأن أي باب لن يفتح في وجهي ، وانه اذا فتح مصـــادفة ، فستسارع اخشابه الى الانغلاق بسرعة ...

سيظل هـذا النهر المكان الوحيد الذي استطيع ان اتجول حوله بحرية ، فلا عين تنظر إليّ هنا ، ولا نظرات خائفة منطوية تطالعني فيه ، ولكن العجيب أن النهر والبلد متشابهان فكلاهما رتيب الحياة ، رتيب الايقـاع ، أملس السطح ، غامض الاعماق ، أية عوالم يخفي صفحة النهر هذه تحتها ؟ وأية عوالم تخفي البلدة في حناياها ؟ هناك ، حيث يسند كل بيت ما يجاوره من بيوت ، ويخفي كل جـدار ما وراءه من نفوس ، وحيث تطفأ انوار البيوت مساء كل يوم فتنام هذه على من فيها حتى الصباح .

كم اتمنى ان أرى من يراجعني أو يستفسر عن أمر ، من أهل التلاميذ وذويهم ! إن محادثتهم والاستماع اليهم قد تنشيء فيما بيني وبينهم نوعاً من العلاقة ، ولكني الى الآن لم أر واحـداً منهم يفد الى المدرسة ومن يدري ، فلعلهم يحادثون المسؤول عن المدرسة او يتركون الأمور تجري من تلقاء نفسها . أما زملائي ، زملائي من المعلمين ، فهم كلهم من البلدة ولهم طبائع البلدة وعاداتها ، وقلما تكرموا عليّ بالسلام أو بالابتسام . انهم يأتون مع دقـات الساعة ويعود كل على حـدة الى منزله ليغلق على نفسه باب بيتـه ويقبع في قوقعته حتى اليوم الثاني . لم استطع ان ألج عالم أي منهم حتى اليوم ، وأغلب الظن انني لن استطيع ذلك أبد الدهر . لقد حدثنا مدرسونا ، اثناء اعدادنا للتدريس ،

عن العلاقات التي يجب ان تنشأ بين المعلمين . يا لأحاديثهم الجميلة البهيجة ... ويا لمثلهم العذبة الرائعة ! .. أهي كلام يقال ، أم أضغاث احلام ؟ ؟

منذ أيام قليلة اكتشفت مكتبة في البلدة ! عجباً لم يكن يخطر ببالي ان في البلد مكتبة في مثل هذا الاتساع والغنى . ولكن واأسفاه ، ان الغبار يملأ كل رفوفها ، ويخيم على ظهور الكتب حتى ليشكل فراشاً رحيباً للعناكب . كنت أسير منفرداً ، فأفضى بي المسير الى اول البلدة حيث ترجلت منذ اسابيع خلت ، وهناك في احد الشوارع الصغيرة وجدت المكتبة . لقد سررت أي سرور، إذ لم يكن لدي ما أقرأه بعد ان قرأت كل الكتب والمجلات التي حملتها معي بل لقد قرأت بعضاً منها غير مرة، ودخلت المكتبة وشعور عذب يخالجني ، شعور غريق وجد منقذاً ومنجى . كانت هذه مظلمة لا ضوء فيها إلا نور ضئيل يتيح للداخل ان يبصر طريقه ، وإذ ألفت عيناي الظلمة رأيت رفوفاً كثيرة من الكتب تملأ جدرانها الاربعة. يا إلهي، رفوف كثيرة تكاد تبلغ السقف . قلت في نفسي: « هذا حسن ! لقد وجدت ما كنت بحاجة اليه ! » . واتجهت نحو رجل عجوز يجلس أمام طاولة قديمة قد طمر رأسه في كتاب ضخم ، ففكرت في نفسي: لا شك في انه المسؤول عن هذه المكتبة .

حيته فلم يرد وإذ رأى اني حجبت عنـــه الضوء رفع رأسه عن الكتاب ونحّى نظاوته عن عينيه وقال لي :

– ماذا تريد ؟

– لمن هذه المكتبة ، وهل استطيع ان استعير منهـا بعض الكتب ؟

لم يجب على سؤالي ، بل بسط لي ورقة بيضاء صغيرة ، وقال :

– اكتب ما قلت ، فأنا لا أسمع .

ثم أضاف :

– اكتب بإيجاز ، فأنا لا احب الثرثرة .

كتبت ما كنت قد قلته له ، ودفعت اليه بالورقـة . وإذ قرأها رأيته يهز رأسه ثم أشار باصبعه التي اتلفها الدخان الى الرفوف وقال :

– انتق ما تشاء .

ومضيت اتصفح عنـاوين الكتب ، كان هناك كتب حديثة ، وأخرى قديمة جداً ، وقد رصف بعضها الى جانب بعض رصفاً اعتباطياً ، إلا انني سارعت الى انتقاء عدد منها وتركت أمر الاطلاع على محتوى المكتبة لزيارة أخرى ، ثم عدت نحو الرجل فوجدته يتابع حركاتي بانتباه ، فكتبت له على الورقة : لقد انتقيت هذه الكتب وسأعيدهـا متى انتهيت من قراءتها .

قال :

ـ حسناً .

وصمت .

كنت أريد أن اعرف شيئاً عن المكتبة وعن كتبها وعن الذين يستعيرون منها أو يقرأون فيها ، كنت أريد أجوبة عن التساؤلات الكثيرة التي ثارت في نفسي حول هذه النافذة التي فُتحت لي فجأة على العالم، ولكنني وجدت ان الرجل راغب عن الكلام .

وأشرت اليه ان يسجل اسمي أو اسماء الكتب ولكنه قال لي وهو يبتسم ابتسامة هزيلة :

ـ لا حاجة الى ذلك بالنسبة لمعلم المدرسة ولا بالنسبة لأي انسان آخر ، فلن يستطيع احد ان يمضي بالكتب بعيداً .

عجبت كيف عرفني هذا الرجل الذي لم أره قط ، وأكاد أجزم بأنه لم يبرح طاولته تلك يوماً . ومددت يدي الى الورقة البيضاء كي اكتب له سؤالاً ، فهمّ أن يتناول الورقة من يدي ولكنه تراجع وقال بهدوء :

ـ أعرف انك تحب ان تتكلم كثيراً وان تسأل كثيراً ، ولكنني اقول لك بإخلاص وانت على عتبة عالمنا، لا حاجة الى اسئلة ، خذ الكتب وامضِ بهـــا ، واذا انتهيت من قراءتها فعد وخذ غيرها .

ولكنني كنت قد كتبت له السؤال ، فتناول الورقة وقرأها ، ثم رأيته يجيبني وكأنه يكلف نفسه مشقة وعناء كبيرين ، وقال لي ببرم :

ـ هذه الكتب ارسلتها العاصمة لنا ، ومن عادتها ان ترسل الينا بين الحين والآخر مجموعات من الكتب الحديثة .

فشكرته وتناولت الكتب وهممت بالخروج ، فسمعت عندئذ صوت الرجل يقول لي :

ـ لن تكون هناك حاجة للكلام في المرة القادمة ، أليس كذلك ؟ ستعيد الكتب الى اماكنها وتأخذ غيرها .

وهززت رأسي ومضيت مسرعاً الى البيت واستسلمت لقراءة هذه الكتب واجداً فيها كوة صغيرة اتطلع منها إلى العالم فراراً من أسر هذه البلدة .

وهكذا انقسم وقتي بين التعليم والقراءة والتجول قريباً من هذا النهر ذي المجرى الهادىء الثابت ، بسيره المنتظم الابدي في انتظامه ...

٤

كان يفد الى المقهى بين حين وآخر ، وذلك في الايام الممطرة خاصة ، أو حين ينتهي دوامه في المدرسة ، ويرى انه بحاجة الى فنجان من القهوة . وكان ينتحي ركناً بعيداً في المقهى فيجلس فيه وحيداً ، وكثيراً ما كان يخرج أحد كتبه ويستسلم للقراءة فلا يقوم الا اذا شعر بالتعب أو خلا المقهى من رواده القلائل وراح الخادم يمسح الطاولات ويعمل على تنظيف المكان ..

لقد ألِفَ معظمُ رواد المقهى الذين لا يكادون يتخلفون أو يتبدلون ، وجه هذا المعلم وسمته وجلسته ، فلم يحاول أحد أن يقترب منه، ولم يجد هو بدوره مجالاً لأن يقترب من أحد ، كان يشعر ان كل انسان ممن يراهم أو يصادفهم أشبه شيء بجدار كثيف لا سبيل الى اختراقه .

قال في نفسه هذا المساء وهو يغلق كتابه ويهم بمغادرة

المقهى : « يجب أن اعود الى البيت بسرعة فان عليّ عدداً من الواجبات من تصحيح بعض الوظائف وتحضير دروس الغد ، وينبغي ان انجزها جميعاً » .

أبعد كرسيه وحمل كتبه وأوراقه واقترب من صاحب المقهى ليدفع له ثمن فنجان القهوة الذي شرب .

قال له صاحب المقهى الذي كان يجلس على عادته فوق كرسي عال أمام منضدة كبيرة يدخن ويشرب القهوة :

– أراك مبكراً في الذهاب ، يبدو ان عليك بعض الواجبات ؟

– نعم صحيح .

ولم يدر السبب الذي حمل صاحب المقهى على الاسترسال في الكلام آنذاك على خلاف عادته .

قال له وهو يزفر الدخان :

– آمل ان تكون قد تآلفت مع جو البلدة ؟

فافترّ فمه عن ابتسامة كئيبة حملت كل ما كان يجيش في صدره من غم وألم وقال :

– لم أتآلف ، واعتقد انني لن أتآلف ابد الدهر ، سأظل اشعر اني غريب هنا حتى الموت .

فجحظت عينا الرجل وهو يتطلع اليه ثم قال ببطء :

– ما عن هذا سألتك، فأنا اعرف انك ستظل غريباً ،

وهذا شعور كل انسان في هذه البلدة ، ألم تر رفقاءك من المعلمين ؟

– ولكنهم من البلدة !

– ان هذا لا يغير شيئاً في الموضوع ، انهم يشعرون انهم غرباء عنك كما تشعر بأنك غريب عنهم ، وهذا الشعور يحس به كل منهم نحو زميله ...

وراح يضحك ضحكة مخنوقة قصيرة ، وأضاف :

– لقـــد سألتك عن تآلفك مع الطقس والطعـــام والشراب ، هذا كل ما في الأمر .

– أمـــا هذه فقد تآلفت معهـا بشيء من اليسر كما يتآلف الطفل مع هذه الاشياء حين يأتي الى الارض .

فهز صاحب المقهى رأسه وهو يقول :

– حسن ! حسن ! هذا هو المهم .

ولم يلبث ان أضاف :

– كيف رأيت المكتبة ؟ لقد علمت انك تتردد عليها باستمرار ؟

– آه ، نعم !

وعجب في نفسه لسرعة انتشار الاخبار في هذه البلدة ، ثم قال لصاحب المقهى :

– انها مكتبة ممتازة ، ويخيل اليّ ان المسؤول عنهـا

انسان مثقف ، فهو يطالع طوال الوقت ، ولكنه ، مع الأسف ...

فقال صاحب المقهى متمّاً الجملة التي توقف المعلم عندها :

– أصمّ ، أليس كذلك ؟

نعم انه أصم ، ولكنني أردت ان اقول انه لا يريد ان يحادث احداً ، لكم وددت ان استفيد منه وان اجد بعض نقاط الالتقاء بيني وبينه ، ولكنه مغلق على نفسه ، مغلق على نفسه الى ابعد حدّ .

فابتسم صاحب المقهى وقال :

– لا تعجب ، فالحق ان كل انسان عالم مغلق على نفسه ، وستدرك ذلك ذات يوم .

لم يشأ ان يناقش محدثه ، ولم يرد ان يطيل معه الكلام ، لأنه شعر ان مناقشته لن تجديه شيئاً ، ذلك بأن اللهجة التي كان يتحدث بها صاحب المقهى صلبة صارمة ، كأن ما يقوله بدهيات لا تحتمل النقاش . فرفع المعلم كتبه التي كان قد أسندها الى الطاولة وهم بالانصراف ولكنه تذكر أمراً ، واذ وجد ان صاحب المقهى مقبل على الحديث ، مال اليه يسأله :

– أليس في البلدة أجهزة راديو ؟

– بلى ، ان لدى الحاكم جهازاً كبيراً ، ولكن لم

يره احد حتى الآن ، كما ان لدى القاضي والطبيب والصيدلي والتاجرين والمزارعين بعض الاجهزة الصغيرة ، ولكن فيمَ سؤالك عن الراديو ؟

– أريد أن اسمع شيئاً ، أريد أن أسمع ...

– لا حاجة بك الى أن تستمع الى أي شيء ، ثق بكلامي ، لا حاجة الى ذلك ! ألست تتنزه بين حين وآخر على ضفة النهر ؟ ألست تنظر الى السهول الفسيحة على ضفته الثانية ؟

– نعم .

فقال صاحب المقهى بلهجة يشوبها شيء من السخرية :

– استمع اذن الى ما يقوله النهر ، والى ما تقوله السهول !؟

دهش المعلم لكلام صاحب المقهى وحزت في نفسه أقواله هذه فقال بتعجب :

– ولكنها لا تقول شيئاً ، انها صامتة صمتاً مطبقاً .

فضحك الرجل وقال :

– استمع اذن الى الصمت ، اصغ الى صمتها فقد تجد فيه من المعاني ما لا يقدمها لك الراديو .

ضاق صدر المعلم أشد الضيق بهذا الكلام ، وشعر بأن عرقاً بارداً يتصبب من جسمه ، فندم على وقوفه امام هذا

الرجل ، ومع انه كان قد نوى ألا يسأل قط عن الاغاني التي انتهت الى سمعه منذ بعض الليالي، إلا أنه وجد نفسه مدفوعاً لأن يسأل ، بعد سماعه كلمات هـذا الرجل الذي بدت له خرقاء والتي أثارت في نفسه الضيق والغم ، فقال له:

– لقد أرقت منـذ أيام ، فتناهت الى سمعي أصوات موسيقا وغناء تنبعث من هذا الشارع .

فأجابه صاحب المقهى بتؤدة وبساطة :

– آه ، نعم ، انها موسيقا الملهى الليلي !

– وأين هذا الملهى ؟

– هنا ! ألا تعرف ذلك ؟

فدهش المعلم وقال له :

– هنا ؟

– أجل هنا . ان هذا المقهى يستحيل بشكل يسر الى ملهى ، عشية كل يوم .

وسارع الى القول مستدركاً :

– ولكن الدخول مقتصر على أفراد قلة ، هل فهمت هـذا ؟

وأشار بعينيه اشارة ذات معنى .

بلغ الحنق الضيق غايته في نفس المعلم الشاب ، فحمل كتبه وحيا الرجل على عجل وانصرف بخطى سريعة يقطع

الشارع الطويل ، ميمماً غرفته الصغيرة المتواضعة وفي ذهنه تجول عشرات الأسئلة وعلى عينيه آثار الدهشة والغرابة .
ولما دخل الغرفة وجد طاولته الصغيرة في انتظاره وعليها كوم الكراسات والدفاتر ، وفي أذنه رنين كلمات صاحب المقهى ، ولعله لم يتحدث الى احد طوال هذه الفترة التي قضاها في البلدة مثل هذا الحديث الطويل الهام ، وكانت تتراقص امام عينيه اشارات استفهام شتى ، وتعاوده بين الفينة والفينة قطع من النغم البعيد الذي سمعه في ذلك المساء ينبعث في الليل العميق فيمس نفسه كأنه الندى يمس أوراق الازهار في صباح ربيعي عذب ، وذكر أخته الوحيدة في تلك الثانية على عادته كلما ضاق صدره بهذه البلدة ، وحنّ اليها والى اسرتها الصغيرة الجميلة التي كان يقضي عندها اوقاتاً لطيفة عذبة ، وقدر انها تذكره وتحنّ اليه كما يذكرها هو ، ولكن أنّى له أن يزورها أو يراها ، وهو في هذا البعد البعيد عن كل مدينة مأهولة ؟؟

٥

قصد ضفة النهر بعد منصرفه من المدرسة . كان الطقس بارداً ولكن السماء صاحية صافية ، فرأى ان يقوم بجولة قصيرة قبل ان يأوي الى منزله حيث لن يجد إلا ما يلقاه كل يوم .

وما أن اقترب من ضفة النهر حتى أبصر من بعيد فتى صغيراً يلعب فوق الرمل ، وعرف فيه تلميذاً من تلامذته كان يوليه كثيراً من العطف والمودة لما كان يرى فيه من ذكاء ونفس هادئة وصفات تميزه من سائر التلاميذ الذين يتشابهون فيما بينهم كل التشابه حتى ليصعب تمييز واحد منهم عن سواه .

وتذكر فجأة قصة ذلك المفكر الذي كان يتجول قرب أحد الشواطىء وهو يفكر في مشاكل الوجود وما وراءه اذ رأى طفلاً صغيراً قد احتفر في الرمل حفرة وراح يملؤها

بماء البحر بصَدفة صغيرة! ولما سأله عن غايته من هذا العمل قال له الطفل بأنه يريد ان ينقل ماء البحر الى هذه الحفرة، فضحك المفكر من سذاجة هذا الطفل الذي يريد أن يوسع ماء البحر في حفرة صغيرة واذ عاود النظر الى الطفل لم يعثر عليه فأدرك انه اختفى ، وأدرك في الوقت نفسه أن ما رآه كان رمزاً لما كان يفعل هو ...

اقترب المعلم من التلميذ وهمّ أن يكلمه ، فنفر هذا كظبي صغير وحاول ان يهرب فقال له :

– لا تخف ، اقترب مني .

فتوقف التلميذ فترة يفكر ، وبعد هنيهة من التردد ، اقترب من المعلم ، وكأنه يأتي أمراً غريباً .

قال له المعلم :

– أراك هنا ، لمَ لم تذهب الى البيت ، وقد أوى كل رفقائك الى منازلهم ؟

فلم يحر التلميذ جواباً ، وبدا كأنه نادم على فعلته حقاً . فقال له المعلم بحنان !

– لا عليك ، فسأوصلك الى المنزل ، هيا نسر .

إلا ان الفتى تسمّر في مكانه ، شاعراً أن في هذا العرض جرماً يفوق تلكؤه في العودة الى المنزل وتلكؤه على ضفتي النهر ، فراح يقول :

ـ لا ، لا حاجة ، فسأعود الى المنزل وحدي .

أدرك المعلم ما في كلام التلميذ من حرج ، وفهم الضيق الذي سببه له ، فأضاف يقول :

ـ حسن كما تشاء ، لنتجول ههنا لحظات ، ثم يمضي كل الى بيته .

فهز التلميذ رأسه موافقاً وسار ببطء على ضفة النهر .

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، فتنعكس أشعتها على صفحة الماء الجاري بهدوء فتتكسر هذه الأشعة وتغور في اعماق المـاء ، وكان كلاهما ينظران الى صفحة المـاء وكأنه يراها للمرة الاولى .

قال التلميذ فجأة :

ـ ان منظر المياه جميل ، أليس كذلك ؟

فهز المعلم رأسه أن : نعم . لقد كشف له قول التلميذ على حين غرة مشهداً لم يدرك جمـــاله رغم انه رآه مراراً فقال :

ـ لا تخلو هذه البلدة من بعض الجمال !

ـ هذا ما تقوله جدتي !

ـ وهل لك جدة ؟

ـ نعم ، هي تروي لنا الحكايات القديمة .

ـ وهل حكاياتها جميلة ؟

فهز رأسه موافقاً ولكنه بعد قليل قال للمعلم وكأنه يبوح بشيء لا يجوز البوح به :

– ولكن الحكايات التي ترويها أنت لنا اجمل !

لم يدر المعلم كنه الشعور الذي خامره آنذاك ، لقد اصابت كلمات التلميذ ركناً مظلماً من نفسه فأثارتها وكاد يرتجف تأثراً ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

– سأروي لكم في المستقبل مزيداً من الحكايات الجميلة .

لا شك في ان شعاعاً رفيعاً من الثقة والاطمئنان قد انتشر بين هذين الكائنين الواقفين وحدهما على ضفة النهر في مغيب عذب جميل .

قال المعلم للفتى الصغير بعد برهة وبصره يسرح في المدى البعيد :

– أليس في البلدة معبد ؟

نظر الفتى بدهشة الى محدثه وقال بمنتهى البساطة :

– كلا ، لا يوجد .

ثم بدا لحظة كأنه يفكر في أمر بعيد ، موغل في البعد ، فيحاول ان يتذكر أموراً طرقت مسمعه ذات يوم ولكنه غفل عنها تماماً ، ثم نظر الى المعلم وقال له :

– همست جدتي في اذني ذات مرة بأنه كان في البلدة معبد ، ثم لم يعد هنالك حاجة اليه فأهمل . واضاف بسرعة وبصوت منخفض :

ـ ان بقاياه ما تزال قائمة قرب منزل الحاكم ، إلا أن احداً لا يلجه ، ولهذا فقد اصبح ملجأ للطيور والعناكب وشتى الحيوانات ، وكثيراً ما هددنا اهلنا حين كنا صغاراً بوضعنا فيه في الليل ، اذا ما خالفنا أوامرهم .

كان المعلم يلتقط كل كلمة ينبس بها التلميذ ، وعندما توقف عن الكلام، لم يقل المعلم شيئاً . كان مطرق الرأس صامتاً يفكر في كل ما قاله التلميذ . وإذ رآه هذا صامتاً قال بشيء من براءة الاطفال :

ـ يظهر انك ، كجدتي تحن الى المعبد .

ورأى المعلم ان من الافضل ألا يعلق على كلام التلميذ بشيء فصمت ، ثم قال بعد لحظة :

ـ هلمّ نعد ، فقد تأخرنا .

وبدا على التلميذ انه يود البقاء فقد كان وجهه يطفح سروراً وبشراً ، ولكن المعلم أصرّ على العودة ، وفي الطريق سأله :

ـ ماذا يعمل ابوك ؟

ـ في الارض ، يزرع القمح ويحصده .

ـ هذا عمل نافع وجميل .

وصمتا . كان ثمة سؤال يشغل ذهن المعلم منذ فترة بعيدة جداً ، ولكنه كان يخشى ان يلقيه على احد ، فقد

كان يشعر ان كل الناس يتجنبون ولا يجرؤون على التلفظ به وان كان يعرف انهم في الوقت نفسه لا ينقطعون عن التفكير به والاحساس بوجوده ، والشعور بوطأته تلاحقهم أنّى كانوا وحيثما أقاموا : ذلكم هو الحاكم . لم يره قط ، ولم يسمع أحداً يتحدث عنه ، ومع ذلك فقد كان الحاكم في كل مكان ، لا تغيب عنه شاردة ، ولا يفلت منه شأن من شؤون البلدة ، والناس . كان يعرف كذلك ان الجميع مرتبطون به واقعون تحت أمره وان هناك خيوطاً تشد كل انسان اليه . ألم يرسل اليه هو راتبه في مغلف ، في أول الشهر الماضي ، وأول هذا الشهر ؟ ومع ذلك فانه لم يره . لقد حمل اليه الراتب احد جنوده وسلمه اياه بصمت من غير ان يحدثه بشيء ولا ان يفسح له مجال الكلام . وكذلك الشأن مع بقية زملائه . وانه ليذكر ان كلًا منهم قد اخذ مرتبه بصمت ولم يعلق بكلمة ولم يجد في ذلك أي موضوع للعجب أو التساؤل . ورأى إزاء ذلك ان يتصرف كما تصرف الآخرون ، وان ينظر الى الامر نظرته الى شيء مألوف لا داعي للاستفسار عنه . أكان الحاكم يربط البلدة بهذه الطريقة ؟ من يدري ! ووجد نفسه يقطع سلسلة تفكيره ويلتفت الى الفتى بجانبه ويقول له :

— والحاكم ؟ هل تعرفه ؟

شعر الفتى آنـذاك بخوف شديد وكأنه واقف فوق ارض تضطرب تحت قدميه وتلعثم قليلًا ، ثم ازدرد ريقـه وقال :

ـ ما شأننا به ، يجب ألا نتحدث عنه ، بهذا اوصانا أهلنا .

ثم حث الفتى خطاه كأن شبحاً يتعقبه، وقبيل ان يبتعد عن المعلم سأله هذا وهو لا يتوقع منه أية اجابة :

ـ لكن أين هو ؟

ومن غير ان يلتفت الفتى قـال وهو يغـذ السير نحو منزله :

ـ انه في البلدة .. في كل مكان منها ..

وابتلعه صمت المنازل بسرعة .

عاد المعلم الى غرفته ليستسلم فيها الى تأملاته، ويستعيد كل كلمة قالها الفتى ، ويفكر فيها مليـــاً ... وسيعاوده الشعور الذي يحس به دائماً في هذه البلدة من انه يعيش ، ويعيش فقط ، رغم هـذه الومضة القصيرة التي أضاءت نفسه هذه الليلة وادخلت قليـلًا من المسرة الى قلبه بعـد حديثه المتقطع القصير مع هـذا التلميذ الذي التقى به وحده على ضفة النهر ...

٦

ظل المعلم متردداً اياماً طويلة يقدم مرة ويحجم اخرى، قبل ان يعقد العزم على الذهاب الى المقهى ليلاً . وكان كلما همّ بالذهاب ثناه الخوف والوجل ، فقد ادرك ان الدخول الى هذا المكان محظور عليه وعلى غيره من الناس الذين يلقاهم كل يوم ، وان في اقتحامه جرأة لا يعلم احد الى أين يمكن أن تفضي بـه . ولكنه الى ذلك كان يشعر في تلك الليلة بنداء خفي يهيب به الى الذهاب ، أهو صوت الطبل الذي كان يخيل اليه انه يسمعه ، أم صوت المغنية الابح الذي سمعه ذات مساء فأيقظ في نفسه فجأة شعوراً كان غافياً ، وكان يظن انه سيظل غافياً أبد الدهر .

ووجد نفسه يرتدي ثيابه ويدلف الى الشارع العريض . كانت الساعة تقارب العاشرة ، والبلدة تغط في نومها الهادىء المألوف ، فلم ير شخصاً أو خيال شخص ، طوال مسيره ،

وحين انتهى الى المقهى وجد ابوابه مغلقة ، فاستدار حوله يبحث عن منفذ فيه حتى عثر على البـاب الصغير الذي ترك مواربا فولجه .

كان جميع من في الملهى غرقى في الظلمـة ، ظلمة الليل والخمر وصخب الالحان ، فلم يشعر بدخوله احد غير الخادم الذي غمز صـاحب المقهى بسرعة فأشار اليه هذا انْ دعه . واختار المعلم الشاب طاولة صغيرة خالية في ركن قريب من البـاب وجلس اليهـــا . لم يكن يرى إلاّ ظهور الجالسين وحركاتهم ، ومع انه كان يعرف ان معه مالاً كافياً — فلم يكن قد انفق كل مرتبات الشهور الثلاثة الماضية — إلاّ أنه كان على يقين بأن المال وحده لا يبيح له ولوج هذا العالم الوحيد في البلدة ، وان هناك ، لا شك ، اعتبــارات اخرى . ولهذا فحين مال الخادم اليه يهمس :

— ماذا تريد ان تشرب ؟

أجابه بصوت خافت :

— قهوة !

وكان هذا الطلب المتواضع اليسير قد طمأن الخادم الى أن لا خطر من هذا المعلم الشاب ، فأعد القهوة وقدمها له بهدوء محـــاذراً ان يثير أية ضجة في ذهابه وإيابه وآثار الدهشة ما تزال مرتسمة على وجهه .

استسلم المعلم بذهول الى هذا العالم الذي دخله لأول مرة . كان كل ما فيه عجيباً وجديداً بالنسبة اليه ، ورأى نفسه في هذه الليلة كمن يدخل بلدة جديدة لا عهد له بها. أمن المعقول حقاً ان تكون البلدة التي عرفها طوال الشهور الثلاثة الماضية غارقة في صمتها مستسلمة لرتابتها ، هادئة في انغلاقها على ذاتها ، تقتات بالكآبة والملال ، قد أوجدت للصفوة المختارة فيها نافذة صغيرة ينفذون منها على حياة اخرى تختلف كل الاختلاف عن حياتهم المألوفة ، وصمتهم المعهود ؟ وممن تتألف هذه الصفوة ؟ نظر امامه ، وكانت الموسيقى تنساب هادئة عذبة فتعرى الليل من بعض اسراره، فعرف من بين الجالسين تاجرين ومزارعاً والطبيب والصيدلي، لم يتبين ملامحهم بجلاء في النور الباهت الذي كان يخيم على الملهى ، ولكنه عرفهم من ثيابهم الانيقة وشعرهم المصفف أحسن تصفيف ، ووقارهم الذي بدأت الخمرة تداعبه قليلًا .

ماذا عسى ان يكون موقفهم من هذا الغريب الذي تجرأ على دخول حرمهم ؟

لقد ثناه صاحب المقهى عن التفكير بدخول الملهى ، وأفهمه ان لا مكان له بين هذه القلة المختارة ، ولكن ما هم ، فليفعل صاحب المقهى وغيره ما يشاؤون . لقد استنشق عبير الليل العميق في هذا المكان ورأى الليل في

حقيقته ، وهـا هوذا قد وقع تحت أسره ولن يثنيه عن الاستسلام اليه شيء بعد الآن .

وقطع عليه تفكيره ظهور المغنية السمراء التي وقفت في وسط الحلبة امام الموسيقيين، وراحت تنشد اغانيها البهيجة ، وفي صوتها الابح شهوات الليل وأسراره المظلمة . كانت تنشد للحب والضياع والشهوة العـارمة ، فتنفجر في نفوس الجالسين انهاراً حمرا وظمأ لا يطفـأ . لشتان بين اصوات تلاميذه ينشدون وبين هذه الاناشيد التي يرددها الموسيقيون مع المغنية .

وإذ بدأت المغنية ترقص اشرأب بعنقه وراح يحدّ فيهـا النظر، كانت تحرك يديها بحرارة وحرية وكأنها كائن خفيف خفيف لا ثقل لجسده ، كانت في وقفتها تسيطر على الملهى كله ، وكان يشعر كل من في الملهى ان المغنية انما تنشد له وحده ، وانها تبسط يديها له فيستسلم لخدر لذيذ يميس في جسده المخمور . ولعل صاحب المقهى والخـادم والمعلم كانوا وحدهم الصاحين في دوامة الغرقى التي كانت تملأ الملهى.

بدا أن المغنية قد توقفت حركتهـا بضـع ثوان ، لقد شدّ بصرها الى آخر الملهى وتسمرت عيناها لحظة وانجذبتا نحو هذا الوجه النحيل الذي لم تره من قبـل ، والذي لم تطأ قدماه ارض الملهى قط. وومض في ذهنها سؤال عذب :

من هذا الغريب وما الذي جاء به ؟ لقد كان وجوده

هنـاك شعاعاً باهتـاً ولكنه جديد ، لقد ادركت ان جو الملهى قد شحنته أنفاس غريبة وأبهجهـا هذا الشعور وحده. ان الصفوة المختـارة التي احتكرت الملهى لنفسهـا قد طعنت من ظهرها . لسوف تعرف غداً من هذا ولسوف ...

وتابعت غناءهـــا بمزيد من الحماسة ، ومع انها كانت تنظر ، على عادتها ، الى جميـع الحاضرين إلا أنهـا لم تكن تهتم ، في حقيقة الأمر ، إلا بهـذا الغريب البعيد الجـالس قرب البـاب . وشعر هو ان عيني المغنية القويتين الحادتين تحطان عليه وتـكادان تلجان الى أعماق نفسه ، فاحمر وجهه وشعر بالخجـل والحرج . هل تعتقد المغنيـة انه انسان غير مرغوب فيه ، أتراها وجدت في مجيئه وقاحة وتحدياً ؟ أم ان هذه كلها خواطر يتخيلها هو والمغنية غير شاعرة به ولا آبهة بحضوره .

وما أن انتهت الأنشودة وصفق الحضور وتهيئوا للخروج حتى كان المعـلم قد سبق الجميـع الى الشارع دون أن يشعر به أحد ، وحثّ خطاه فبلغ غرفته والسامرون لما يتفرقوا في الشارع . كان يشعر انه أتى أمراً لا يحق له أن يفعله ، ولكنه انغمر في حمية هذه المشاعر والأخيلة التي كانت تعتمل في نفسه ، ومع ان الليل كان قد مضى منه أكثر من ثلثيه إلا أنه ظل يقظان ساهراً يدفع النوم عنه دفعاً بهذه الصور التي كان يستعيدها المرة تلو المرة فيجد في كل حين شعوراً

جديداً عذباً ، وكانت صورة المغنية تبرز بين شتى الصور التي تتداعى الى مخيلته ، قوية واضحة عذبة ، فيها كثير من الحنان والصفاء . ونام آخر الليل وهو بين مؤمن وشاك بأن المغنية قد لمحته ونظرت اليه وأولته بعضاً من نظراتها الهادئة التي تنفذ الى القلب بكثير من القوة واليسر ...

★

جلس صاحب المقهى ، صبيحة اليوم الثاني ، يفكر في سهرة الليلة الماضية والنوم ما يزال عالقاً بجفنيه . كيف سمح امس لهذا الغريب باقتحام الملهى ؟ وكان يردد بصوت خافت : ولكنه هو الذي دخل، وسرعان ما يجيب نفسه : كان باستطاعتك ان تمنعه من الدخول ، أن تطرده . ثم لا يلبث ان يقول لنفسه : ولكن طرده يثير ضجة لا ضرورة لها ! ثم ماذا كان من أثر لحضوره ؟ لقد جاء متأخراً وذهب قبل الجميع فلم يلحظ وجوده احد . ولكنه قال في نفسه بعد برهة : وماذا لو عاود الحضور ؟ آه لقد ثنيته عن المجيء وصرفته عنه . وعاد بعد ذلك يفكر في وحدة المعلم الغريب وضيقه وبرمه بالبلدة ومن فيها وما فيها ، فيقول في نفسه : وأي شر في ان يحضر هذه الحفلات التافهة التي تقام كل مساء رتيبة متكررة في هذا الملهى ، ولكن صوتاً بعيداً كان يأتيه خفية ، هامساً في أذنه :

هل هذا رأي أصحابك من الحضور ؟ أيسكتون عن تصرفك ؟ فيرتجف فزعاً ويهم بطرد هذه الافكار من ذهنه ، ولكن الصوت لا يلبث ان يعاوده : الحقيقة انك كبرت فأصبحت ضعيفاً وستدفع ثمن ضعفك . فيسرح بصره في ارجاء المقهى ثم يكتم تنهدة حبيسة . أهو يحب هذا الغريب ؟! لا ، لا شأن له به ، فهو ليس من البلدة ، وليس يعرفه ولا علاقة له به. لا شك في ان حادثة الامس كانت غلطة وعليه أن يحول دون تكرارها . لقد راودته مثل هذه الافكار امس قبيل ان ينام ، ولكنه لم يستطع ان يتغلب عليها إلا بالنوم . كان متعباً مرهقاً لم يستطع أن ينام بعد الظهر ، لذلك سرعان ما أغفى بعد انتهاء السهرة ، وخيل اليه ان هذه الافكار قد اختفت الى الأبد، ولكنه عرف الآن انها ما تزال تعيش في ذهنه وأن لا سبيل الى صرفها فهي تلح عليه وتقسو في الالحاح ، هل تسيء سمعته في هذه البلدة بعد ان عاش فيها ما عاش كما تشتهي البلدة وأهلها ؟ وأحس بشيء من الندم والألم ، لم يستطع ان يتغلب عليهما فأذعن لهما كئيباً متضايقاً وراح يلتهم الدخان التهاماً على غير عادته بدفعات قصيرة حادة متتالية .

ولم ينتشله من شروده الا صوت المغنية يطالعه أمامه فجأة :

– صباح الخير يا عمي !

قال صاحب المقهى بعجب :

– صباح الخير يا ابنتي ، أنت هنا ؟

وعقدت الدهشة لسانه فلم يستطع ان يضيف حرفا . كيف نزلت المغنية الى المقهى في مثل هذه الساعة المبكرة، وعهده بها ان تظل نائمة حتى الظهر ؟ وما الذي حملها على ان تغير نهجها اليوم فتنزل الى المقهى وهي تعلم حق العلم انه ينبغي ألا تقع عليها انظار الناس العاديين ؟ وعلى هذه العادة دأبت منذ اكثر من عشرة اعوام، فما بالها تحيد عنها اليوم هكذا فجأة ؟ !

وادركت المغنية الحيرة والتساؤل والدهشة المرتسمة على وجه الرجل الكهل ، ثم التفتت فوجدت ان المقهى خال ، فاطمأنت قليلاً وافهمته بحركة من يدها ان ما في المكان من احد ، ولكن عينيه ظلتا عالقتين بالشارع ثم قال والكلمات تخرج من فمه بسرعة :

– ما بكِ ؟ ماذا تريدين يا بنيتي ؟

ها هي ذي تشعر للمرة الاولى في حياتها بالعاطفة التي يكنها لها صاحب المقهى وقد حرص طوال حياتها على ان يكتمها ويحبسها في صدره ولكن لهجته هذا اليوم خانته .

– لا شيء يا عمي، لقد كان نومي مضطرباً، واستيقظت

مبكرة على غير عادتي لسؤال كان يدور في ذهني طوال الليل فرأيت ان ألقاك هنيهة لاستفسر منك ...

فقاطعها صاحب المقهى :

– عن الغريب الذي رأيتـــه أمس في الملهى . أليس كذلك ؟

قالت له ببراءة :

– نعم .

ثم ادركت توا ان العم لاحظ ما لاحظته ، عند ذاك ارادت أن تعرف ما كانت مزمعة على معرفته :

– ومن هو يا عمي ؟

– غريب أوفد الى البلدة منذ اكثر من ثلاثة شهور ليقوم بتعليم الصغار في المدرسة .

– لم أره طوال هـــذه المدة ولم اسمع أحداً يتحدث عنه ؟

– وان الذين ترينهم لا يأبهون به ولا يعنيهم أمره .

– وانت ؟ لماذا لم تحدثني عنه أو تعرفني به ؟

– كنت وما ازال اعتقد ان تعرفه اليكِ سيسيء اليه كثيراً . اتعتقدين ان « الجماعة » ترضى عن محـادثة هذا الشخص لكِ أو حضوره حفلاتك أو وجوده في الملهى ؟

– آه ! وكيف جاء امس ؟

لم يجب صاحب المقهى بل راح يقضم اظفره ، فعادت المغنية الى السؤال :

ـ كيف دخل الملهى امس اذن ؟

رفع صـــاحب المقهى رأسه ، وفي عينيه علائم خوف هادىء وكأنه امام قاض يحاسبه على اعماله ، ثم قال لها :

ـ لقد جاء متأخراً ودخل الملهى بهدوء ثم خرج قبيل انتهاء السهرة ولم يكن باستطاعتي ان أثير أية ضجة حول دخوله خوفاً من افساد الحفلة . لذلك صمتّ ، وانا واثق ان احداً من الحضور لم يره ، كما خيل إليّ انك لم تريـنـه كذلك ، وعلى كل فسأفهمه اليوم انه لا يحق له ان يأتي بعد الآن الى الملهى وإلا ...

ـ وماذا لو طلبت اليك ان تسمح له بالدخول ؟

ـ لست تملكين هذا الحق يا بنيتي .

ثم حول نظره عنها قليلاً وأضاف ببطء :

ـ واعتقد ان الحاكم لا يرضى عن مجيئه ..

ففهمت اشارته واطرقت رأسها ، ثم قالت :

ـ ومع هذا فأنا اتمنى ان يأتي واذا كنت تحبني حقـاً فلن تعمل على منعه .

وانطلقت بخطى هادئة من حيث أتت . وظلت كلمتها « تحبني » ترنّ في أذن الرجل الكهل ، ومع انـه لبث

يعيش معها منذ وفاة امهـا المغنية السابقة ، سنوات طويلة ويتعهد نشأتها يومـاً بعد يوم وشهراً وراء شهر إلا انـه لم يجرؤ على القول ولو في سره بأنه يحبها . لقد فتحت هـذه الكلمة ركناً مغلقاً في قلبه فكأنها اعادت اليه ما فات من عمره . ومع ذلك فقد صمم على ان يثني الغريب عن دخول الملهى مهما كلف الأمر ، فليس يستطيـع هو ولا اهل البلدة جميعاً مجابهة الحاكم .

وإذ انتصف النهار رأى المعلم ماراً امام المقهى ، وقدّر أنه ذاهب الى المكتبة او الى المطعم ، فخف اليـه وعادا معاً الى المقهى .

شعر المعلم بشيء من الارتباك والحرج ، لمـاذا يستدعيه صاحب المقهى ، وفي مثل هذا الوقت ؟ وتبـادر الى ذهنه ان لمجيئه الى الملهى ليلة البارحة علاقة بهذا ، ولكنه صرف هذه الفكرة وابعدها عن خاطره بقوة ، إلا انـ صوت صاحب المقهى جاءه هادئاً قوياً كأنه ينبعث من اعماق بركان مطفأ :

ــ سأقول لك كلمتين فقط : لقد اتيت امس الى هذا الملهى وسهرت فيه ، وهذا كما تعرف ، أمر محظر على سائر الناس بله الغريب !

نظر اليه المعلم بألم ، وكانت كلمة « الغريب » تحفر في نفسه أخاديد عميقة .

واضاف صاحب المقهى بعد قليل :

— لم أشأ ان اطردك لأن احداً لم يلحظ مجيئك ولكن يجب ألا تعود مرة اخرى . لا بـــأس في أن تجلس في المقهى ما بدا لك ، أما في المساء ، فعليك ، كسائر اهل البـلدة ، ان تكون في غرفتك ، هل في كلامي شيء من الغموض ؟

قال المعلم :

— كلا .

وخرج مطأطىء الرأس كأنه أتى اثماً ، وشعر بالغربة تحيط به احاطة قاسية وكأنها سلسلة تضيق الخنـاق عليه ، وادرك ان هـذه الكوة التي فتحت امامه أمس فجـأة قد سدت بصخرة عاتية من غربته ووحدته ووضعه في هـــذه البلدة . وهمّ ، وقد ابتعد عن المقهى ، وشارف غرفته ، أن يعود ليناقش صاحب المقهى ، ويثأر لوقفته الصـــامتة الذليلة التي وقفهـــا امامه وليتحداه ويفهمه انه سيعود الى المقهى كل ليلة ، ولكنه شعر من جديد بأنه عاجز وحيـد في هذه البلدة الغريبة الوحيدة في غربتها ككوكب منفرد يسبح في أفق لا يعرف له اول أو آخر ، فازدرد ألمه ، وولج غرفته كتائه في محيط عات لا تربطه بالحياة إلا هذه الجدران الضيقة وأثاث الغرفة القديم البالي ...

٧

ليس يدري لماذا ظل يتردد طوال اسبوع كامل قبل ان يصمم على الذهاب الى الملهى آخر الأمر ، غير آبه لما قاله صاحبه الكهل . لقد اقام هذا الاسبوع يقلب الموضوع على وجوهه المختلفة . كان يشعر حقاً بشيء من الخوف ، فالبلدة كما عرفها قاسية لا ترحم ، وتفكر في نفسه : أية نتائج يمكن ان تترتب على ذهابي الى الملهى . أمن المحتمل أن يطردني صاحب المقهى ؟ وهل يستطيع ذلك ؟ انني واحد من اهل البلدة ، ولو كنت غريباً عنها ! ولكنه ادرك ان في محاكمته هذه شيئاً من المغالطة ، فليس يحق لكل سكان البلدة ان يلجوا عالم الليل الضيق . قال في نفسه وهو يهم بمغادرة غرفته :

ـ سأذهب وليكن ما يكون !

كان صوت المغنية يناديه طوال الليالي الماضية ، كان

يهمس بأذنه بأمور عذبة فيرتعش لها قلبه الصغير . وكان يلمح ، وغرفته مظلمة قاتمة ، صورة ذراعيهـــا تمتدان اليه وتؤشران نحوه ، وتنبسطان امامه . وكان يرى حتى في وحدته وانعزاله في غرفته ، عيني المغنية تنفذان الى أعماق نفسه ، ويحس بحرارة جسدها الاسمر ، فلم يستطع ان يصمّ أذنيه عن هـذا الصوت الذي كان يدعوه ليل نهـــار الى رؤيتها ولا أن يكبح خياله عن متابعة صورتها كلما خلا الى نفسه . ومع ذلك كله فقد لبث اسبوعاً يصارع نفسه ويقاوم رغبته العنيفة ، كان يعلم حق العلم ان دخول الملهى محظر عليه ، وأنه قد يسيء الى نفسه ، ولكن هذه المخاوف كلها لم تكن لتثنيه عمّا عزم .

حين وصل الى الملهى كانت المغنية جالسة وحدها تتناول عشاءها على عادتها مساء كل يوم . لم يكن قد جاء الى الملهى أحد بعد . ارتسمت لدى دخوله دهشة كبيرة في عينيْ صاحب المقهى : مـــا الذي جاء بهذا الغريب ؟ ألم يكن ما قلته له منذ اسبوع كافياً لاقناعه ؟ وهمّ أن يقوم ليعيده من حيث أتى ، لكن المغنية أومأت اليه أنْ ابقَ في مكانك ، وباشارة من يدها استدعته الى مائدتها ، فجلس أمامها باستحياء ، وأدرك صاحب المقهى أن كل شيء قد انتهى ، فليس يستطيع أن يتدخل بعد الآن . كان على الغريب ألا يأتي . وكان عليه هو ان يطرده اذا جاء ،

تلك كانت الأوامر التي شعر ان الحاكم يريد أن تُنفّذ . لم يقل له أحد هذا ، ولم يشر اليه انسان بما عليه ان يفعل، ولكنه كان يعرف ان هذا واجبه وان من الضروري ان يتصرف هذا التصرف. أما وقد تدخلت المغنية الآن فانه اصبح عاجزاً لا يملك القيام بأي عمل . ربما كان يشعر في في دخيلة نفسه برغبة حقيقية في السماح للغريب بالدخول ولكن خوفه من الحاكم ورواد الملهى كان يحمله على عدم قبوله. لقد كان يحس بشيء من الضعف تجاه هذا الانسان ، لعل مرده الى أنه طعن في السن وفارقته بعض شجاعته ، قال في نفسه :

– لقد كبرت فأصبحت ضعيفاً تجاه المغنية وهذا الغريب ! ولكنه كان يشعر في الوقت نفسه بشيء من الحنو تجاه ضعفه هذا . لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تتدخل فيها المغنية في شأن ما – أي بلبال هذا ! لقد مضت عليها أعوام كثيرة وهي تغني وترقص في هذا الملهى وتوزع ابتساماتها على الجميع توزيعاً عادلاً وتحتفظ بنفسها للحاكم مرة كل اسبوع ، وها هي ذي تتخذ اليوم موقفاً جديداً من انسان غريب لا حق له بدخول الملهى ولا حق له بمجالستها ، وغطى الرجل الكهل وجهه بيديه وهو يكاد يصرخ بشدة :

– أية نتائج ستترتب على هذا التصرف الجديد ؟!

★

قالت له المغنية وهي تبعد الطعام من أمامها :

— لماذا لم تأت طوال هذا الاسبوع ؟

اذن فهي على علم بزيارته الاولى للملهى ! قال لها :

— وهل رأيتني يوم جئت الملهى للمرة الاولى ؟

— لا شك في انني رأيتك ، لقد كنت قابعاً هنا في هذا الركن ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— لقد كانت نفسي لتوق منذ زمن الى رؤية انسان في هذا الملهى ..

فقاطعها وهو يقول :

— وهؤلاء القوم الذين يغدون كل مساء ؟

— آه .. لقد سئمت منهم . فقد أحالتهم المـــادة الى كائنات أشبه ما تكون بهذه الطاولات التي تراهـــا . انني اريد ان أتحدث الى انسان وان أجلس معه أحدثه عن ذاتي وضيقي ووحـدتي . انهم جميعـاً لا يفكرون فيّ بل في جسـدي ، ولمـــا أرووا حاجتهم مني وملوا ، غادروني وحيدة في غرفتي هنا .

أحس المعلم بفرح لم يذق طعمه طوال حياته . كان يحنّ هو الآخر الى صوت انساني يستمع اليه ، والى قلب يعري قلبه أمامه . قال لها :

— أنت وحيدة مثلي .

ـ كان حوارهما بطيئاً بارداً أول الأمر ولكنه لم يلبث ان اكتسب مزيداً من القوة والانفعال ، وراح يشف شيئاً فشيئاً عن نفس كل منهما .

سارعت المغنية الى القول :

ـ أنا أكثر وحدة وغربة منك . لأنني وحيدة حتى بين هؤلاء الذين لا يزيلون غربة ولا يبعدون وحدة . وأنا وحيدة وغريبة لأنني أعيش معهم ولهم .

انفرجت شفتا المعلم عن ابتسامة حملت كل مـا كان يجيش في نفسه من سعادة وفرح. كيف وجد هنا في شخص المغنية ما كان يبحث عنه فلا يجده ؟ هل كان يخطر هذا ببال انسان ؟ وقال لها وقد عاوده خوفه :

ـ وماذا عن الصفوة ؟ هل ترضى عن مجيئي ؟

ـ ليس يهمني أمرهـا ، ستأتي متى تشاء ، انني اعرف ان وجودك غير مرغوب فيه هنا ، ولكنك اذا أردت أن تأتي فلن يستطيع احد منعك .

ـ انني ارغب في رؤيتك ، وأتمنى ان أراك دائماً . لقد لبثت أبحث منذ مجيئي الى هذه البلدة عن انسان يخفف غربتي فلم أعثر عليه ، وها أنذا اجدك اليوم .

ـ سنجهد في أن نحافظ على هذه الصلة بيننا .

كان الموسيقيون قد بدأوا يستعدون ، وهم في دهشة

من أمر المغنية ، وهذا الغريب الذي كانت تحادثه بصوت هامس ثم تصغي اليه بعينين ملؤهما الانتباه والاهتمام يلتمعان ببريق لم يسطع من عيني المغنية قط .

قالت له المغنية وهي تقوم :

– سنلتقي كثيراً ، أليس كذلك ؟

وكان هو يفكر في تلك اللحظة بالتقائهما فقال :

– سنلتقي كثيراً . نعم .

ثم رفع عينيه وتابع نهوضها ومشيتها وكأنه يستيقظ من حلم عميق ، وتبعتها نظراته في كل خطوة كانت تخطوها أو حركة تقوم بها . وظلت انظاره معلقة بها حتى حين غادر الملهى واتجه نحو غرفته ، بل ان خياله كان يراها حتى بعد أن انتهى الى غرفته التي لم يجدها كئيبة موحشة كما كان يراها من قبل .

★

حين بدأ رواد الملهى يتوافدون كانت انظارهم تقع اول ما تقع على هذا الغريب الذي لم يروه من قبل في الملهى . وكان كل منهم لما جلس ، حوّل بصره عن منصة المغنية وراح يراقب هذا الغريب ويتتبع حركاته وتصرفاته وهو يشعر بالضيق والفتور والاشمئزاز . من هذا ؟ ؟ ومن سمح له بالدخول؟ وكان هذا السؤال يتردد على كل شفة، ويهمس

به كل جالس الى جاره . واستدعى الطبيب خادم المقهى وقال له :

– من هذا الجالس ههنا ؟

– انه المعلم .

– وما شأنه هنا ؟ وما الذي جاء به الى هذا الملهى ؟

– لا ادري .

وأشار احد كبار الموظفين الى صاحب الملهى ان اقترب ، فقام هذا عن كرسيه وترك جلسته المألوفة التي لم تتغير طوال سنوات عديدة واقترب من الموظف ، وهو يقدّر سلفاً عن أي موضوع سيسأله :

– من هذا ؟

– المعلم . .

– ولماذا سمحت له بالدخول الى هنا ؟

– لقد حاولت ان امنعه إلا ان المغنية استبقته .

– الا تعرف ان وجوده هنا مزعج ، هل انت غريب عن هذه البلدة ؟

وهمّ صاحب المقهى أن يقول :

– ولكن أي بأس في وجوده ؟

إلا أن الموظف كان قد صرفه بحركة من يده ، فاستدار واتجه نحو منضدته خجلان يتعثر في مشيته .

ومرى الهمس بين الحضور بأن المغنية استبقت المعلم ولم تسمح بصرفه، وان صاحب المقهى ابدى كثيراً من الضعف نحو هذا التصرف . ومرت الهمسات وتعكر جو الصمت الذي يخيم عادة على الملهى ، وكانت اصوات المتكلمين تعلو احياناً فتضيع في الحان الموسيقيين . لقد شعر الجميع ان هناك شيئاً غير عادي يجري في هذا الملهى . وكانوا يتألمون جميعاً لأن غريباً جـــاء يقاسمهم جزءاً من متعتهم اليوميـة ويدوس أعراف البلدة بوجوده . لذلك فقـد احس الجميع ان سهرتهم هذه الليلة ليست كالسهرات وانهم لن يستغرقوا فيها في ملذتهم على عادتهم مساء كل ليلة . كان وجود هذا الغريب وحـده ينغص عليهم أمنهم وحريتهم ، وكان يخيل اليهم انه انما جاء لكي يتطلع اليهم ويحد من حريتهم ويتلهى بمشاركتهم في حيـاة هي حياتهم الخاصة بهم والتي لا يحق لإنسان أن يطأ حرمتها .

أما المعلم فقد كان مستغرقاً في النظر الى المغنية كل الاستغراق . كان يشعر انها انما تغني له وحده . كان ذاهلاً عما حوله ، يتتبع تنقل المغنية الحر ويرى في كل حركة تقوم بها مخاطبة له تمس اعماقه وتكشف له عن اسرار الحياة نفسها .

انصرف كل من كان في الملهى الى منزله . كان الرواد يشعرون انهم لم يثملوا حقاً في تلك الليلة وأن أمراً مراً قد

نغص عليهم وجودهم . وهمس المزارع في اذن أحد التجار وقد قطعا مسافة من الطريق :

ـ لا بد ان نقضي على هذا الرجس الذي مس البلدة .

وأيده محدثه بحركة من رأسه ، واضاف وهو يفكر بالسهرات المقبلة :

ـ يجب أن يتم ذلك بسرعة ، ترى هل درى الحاكم بهذا ؟

ـ لا بد ان تكون قد بلغته الانباء، فأنت تعرف...

ـ نعم ، ان الحاكم يعرف كل شيء ولن يرضى عن هذا الرجس ابداً .

ومضى كل الى منزله .

قال صاحب المقهى للمغنية وهي تغادر الملهى لتصعد الى غرفتها :

ـ لقد أثار وجود هـذا الغريب الملهى ، وعسى ألا تكون نتائج ذلك وبيلة علينا .

ابتسمت المغنية بحنان واستدارت نحو صاحب المقهى تقول وعلى شفتيها ما تزال آثار انغام سعيدة :

ـ لا عليك يا عمي ، لن يحدث شيء البتة !

٨

ابتدره المسؤول عن المكتبة الجالس أبداً امام منضدته تلك ، يقول له وهو لمّا يقترب منه :

– لماذا ذهبت الى الملهى ؟ لماذا ؟

ولم ينتظر الرجل الاصم جواباً بل أطرق بصره في الكتاب الكبير الذي كان يقرأ فيه ، وشعر المعلم بالحرج والضيق. لم يكن يتصور ان ذهابه الى الملهى سيبلغ مسامع الناس حتى ينتهي الى اذنيْ هذا الرجل الاصم نفسه . كان يود لو يحادث هذا الرجل ويناقشه ويشرح له سبب استسلامه الى جو الملهى وسروره به ومعنى تعرفه على المغنية ، ولكنه أيقن ان الرجل زاهد في محادثته وانه اتخذ بشأنه حكماً لا سبيل الى تغييره ، فلاذ بالصمت .

وسارع الى استبدال الكتب التي كان يحملها ودلف من

المكتبة على استحياء واذ التفت وهو على عتبة البـاب رأى الرجل الاصم يتابعه بعينين متهمتين .

ثم قصد المطعم الصغير الذي اعتاد أن يطعم فيـه ظهر كل يوم فوجد نظرات الاتهام نفسها تنصب عليـه من عيني صاحب المطعم وزوجه فلم يستطع ان يأكل إلا لقمـة أو لقمتين إذ وجد نفسه متضايقاً من هذه العيون التي تلاحقـه وترصد حركاته . فقام بصمت وانطلق الى غرفته وتنـاهى الى مسمعه وهو يهم بمغادرة المطعم صوت الطاهية تردد مـا قاله المزارع لزميله التاجر :

ــ لا بد من تطهير البلدة من هذا الرجس !

وتفـــاقم ضيقه حين استقبلته جدران غرفته الموحشة الكئيبة وجلس على سريره مستغرقاً في صمته . لماذا تلاحقه البلدة بعيونها واين موضع الرجس فيما فعل ؟ ! ألا يذهب عدد من الناس مساء كل يوم الى هذا الملهى فلماذا يكون وحده المذنب في ذلك امـام اهل البلدة ؟ ؟ وآنذاك فهم ما كان يرمي اليه صاحب المقهى . لقد عرف البـلدة قاسية ممعنة في قسوتها ولكنه لم يعرف انها قد تبلغ هذا الحد من القسوة ، وكان يعرف انه غريب ولكنه لم يكن يقدّر أبعاد غربته تقديره لها الآن . ولم ينتشله من غمه واستسلامه للكآبة والتساؤل الا طرق خفيف على باب غرفته . قـال

في نفسه : « عجباً من يطرق بابي في هذه الساعة ؟ » .

ـ تفضل !

ودخلت المغنية .

لم يكد يعرفها لأول وهلة ، فقد كانت ترتدي ثوباً عادياً جميلاً خالياً من كل الجواهر المزيفة ، وكان وجهها جميلاً وفتاناً وبدت له اصغر مما رآها وأجمل ، سمراء ، فاتنة السمار دقيقة الملامح جميلة التكوين ، وصاح بدهشة :

ـ أنت هنا في غرفتي !

فابتسمت ابتسامة رقيقة عذبة وقالت بصوتها الابح :

ـ لقد اتيت ازورك . هل في هذا بأس ؟

ـ أهلاً بك .

لقد غابت عن نفسه كل مشاعر الضيق والغم التي اخذت بخناقه طوال الساعات الماضية وحل محلها الآن شعور بالبهجة والسرور ، لم يعرف له مثيلاً منذ مجيئه الى هذه البلدة .

جلست المغنية قبالته ، فرأى جسمها الرائع بتكوينه المتناسق المنسجم .

قالت له المغنية :

ـ لم استطع أن امنع نفسي عن زيارتك . كنت بشوق اليك وترددت طويلاً قبل ان آتي ، ولكن رغبتي في رؤيتك انتصرت آخر الأمر .

ـ حسناً فعلت ، لقد كنت انا ايضاً في شوق اليك .

وأضاف بعد لحظة :

ـ ولكن ...

ـ لا عليك . اعرف ماذا يجري في البلدة وما يدور حولك من كلام ، لا تخف ، انني الى جانبك وسأظل كذلك ...

أحس المعلم بشيء من القوة والشجاعة ، فابتسم وقال :

ـ لا أشك في هذا مطلقاً .

ونظر الى جدران غرفته فشعر انها لم تعد جدراناً لسجن كان يضيق عليه يوماً بعد يوم .

قال للمغنية :

ـ هذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها ان غرفتي جميلة .. جميلة جداً وكذلك البلدة والحياة نفسها .

لم تجبه المغنية بغير ابتسامة كانت تحمل شتى معاني الفرح وقالت له بعد حين :

ـ حدثني عن نفسك ، عن ماضيك ، عن شعورك بهذه البلدة .

لم يكن بحاجة آنذاك لأن يسأله أحد مثل هذا السؤال، لقد انطلق يتكلم كالنهر الهادر ، فحدثها عن طفولته واسرته التي لم يبق منها إلا اخته ، وعن دراسته وكيف

يقضي ايامه وماذا يفعل . ثم انثنى يحدثها عن رؤيته لها وشعوره نحوها ، وأضاف وهو يشعر بشيء من الخجل والارتباك :

– لقد احببتك منذ ان رأيتك للمرة الاولى .

– وأنا كذلك ...

وراحت تحدثه بدورها عن وحدتها وكآبتها والحياة المرّة التي تعيشها ، لقد فرحت لرؤيته في تلك الليلة وادركت ان هذا الانسان الغريب قد يتجاوب معها ويبدد غربتها وقد تكون علاقته بها مخالفة للعلاقات التي تربطها بالصفوة المختارة ، تلك التي درجت على السهر في الملهى .

وحدثته عن غربتها وانفرادها في هذه الغرفة التي تقع على سطح الملهى وعن ملالها طوال اليوم، وعن عمها صاحب الملهى الذي يعنى بشؤونها بعد موت امها ، وروت له ما تعرف عن امها التي كانت مغنية الملهى طوال حياتها .

ومالت اليه تحدثه هامسة عن الحاكم وزياراته الاسبوعية لها وعن اشمئزازها منه أحياناً وضيقها به ؛ وعن الشائعات التي تزعم انه كان صديق أمها تربطه بها العلاقة الآثمة التي تربطها به الآن .

لقد كانت بحاجة الى انسان ، انسان واحد تبثه ما كان يتراكم في نفسها لحظة بعد لحظة ويوماً بعد يوم من شعور

بالبرم والالم والمذلة .

وراحا في غمرة نشوتها ، يتحدثان معاً عن ايامهما المقبلة في البلدة . لقد كان كل منهما بالنسبة للآخر كالوابل الذي ينعش ارضاً ميتة .

قالت له :

ـ لسوف تأتي الى الملهى كل ليلة ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً ، وسيكون يومي كله انتظاراً للمساء .

وتخيل المعلم انه لن يتنزه وحده بعد الآن قرب النهر ولن يناقش وحده الكتب التي يقرأ كل يوم :

ـ سنتنزه معـــاً خارج البلدة قرب النهر ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ وسأحدثك عما أقرأ وعما افعل كل يوم .

ـ وسأجد في ذلك سعـــادة كبرى وانا سأنظر اليك وحدك طوال السهرات، سأغني لك وحدك وسأرقص وكأن الملهى خال ، ما فيه احد غيرك .

وامتدت الزيارة فترة لم يستطع أي منهما ان يحددها أو يشعر بها . كان الزمن يسيل دون ان يشعرا بـه ، وكان صوت كل منهما يحمل الى الآخر خدراً عذباً رائعاً لم يذوقا طعمه يوماً .

في هـذه الليلة تأخرت المغنية في النزول من غرفتهـــا لتتناول طعامها قبل السهرة ، على غير عادتها .

لقـد ادرك الجميـع انـ في الجو شيئاً ينذر بالخطر ، وتضاعف هذا الشعور في نفوسهم حين أحسوا ان المغنية لم تكن تغني لهم ولم تكن ترقص لهم كذلك . والتفتوا الى الغريب ورموه بنظرات مليئة بالحقد والكره والنقمة . لقد جاء هذا يسرقهم فيء واحة ألفوا أن ينعموا بظلها عشية كل يوم، ويشاطرهم امتيازاً خاصاً بهم وحدهم لا يحق لأحد ان يشاركهم فيه، ويستولي وحده على جمال لا يجوز ان يستأثر به واحد دون غيره .

وخـامرهم شعور بأنهم اصبحوا الغرباء في الملهى وانـ الامور التي كانوا قد قدروها فأحسنوا تقديرهـا لن تستقيم لهم بعد الآن .

٩

أصبح المعلم ، على نحو مستمر ، عرضة لأنظار الناس المحملة بالسخط والازدراء ، ولعيني المغنية المفعمتين محبة وصفاء وشوقاً ، وكان سعيداً بذلك جميعاً ، فقد خيل اليه أنه أصبح من صميم البلدة ، ولم يعد ذلك الغريب الذي لا يوليه أحد انتباهاً أو التفاتاً ، ومع ما كان في انظار الناس من قسوة ومع ما كان يشعر حين ينظرون اليه بأنهم يعرّونه ويكادون ينفذون الى اعماقه ، إلاّ أن قلبه كان عامراً بحب عميق لم يشعر بمثله قط . لقد اختلفت نظرته الى كل ما يحيط به، فهو يحب غرفته بعد ان كان يعتبرها زنزانة دفع اليها دفعاً يوم جاء الى البلدة ، ذلك بأنها اصبحت تثير في نفسه عدداً من الذكريات تتعلق بالزيارات المتكررة التي كانت تقوم بها فتاته . حتى هذا الكرسي المهترىء أصبح يحمل شيئاً من عبقها ، والنهر الذي كان يراه رتيب الجريان ، تافه الحركة ، غدا ينظر اليه بحنان ،

فلا شك في انه التقط ، بعض المرات ، احاديثه مع المغنية وهما يسيران الى جانبه ويتأملان مـــاءه في آصال الأيام الصاحية . وتلك الساعة ذاتهـا أصبح لحركتها معنى ، فقد اضحت تحدد مواعيد التقائه بالفتاة ، ولم تعد آلة حديدية صلبة تشير الى الزمان الممل الذي يحس بأسنانه تقضم كالجرذ حياته الرتيبة .

والصفوة المختارة ؟ أية قيمة لها ، لقد اتضح انها أرغمت على قبوله في الملهى ، ومشاركته لهـــا في رؤية رقصات المغنية وسماع أغانيهـا العذبة ، ولتقنع نفسها بعد ذلك كما تشاء بأن هذا المعلم الغريب لا يمكن أن يرقى الى طبقتها أو يجالسها ويصبح واحداً منها . لقد أحب المعلم واستطاع بحبته ان يصبح انساناً في هـذه البلدة التي لم تعرف إلا الجمود ، وبهـذه المحبة التي وجدت على نحو عفوي وفجائي طرح المعلم عنه ثوب الغربة والوحدة واصبح اكثر السكان سروراً وفيضاً .

حتى دروسه ذاتهـا ملأتها الحيوية والحماسة ، وكانت من قبل هادئة رتيبة لا تختلف كثيراً عن حركة الساعة الكبيرة في اول البلدة ، وهدوء النهر في آخرها .

كانت المغنية قد قصدت غرفته على عادتها بعض الامسيات بعد انتهاء دوامه في المدرسة ، وجلست الى جانبـه تضيء حبوراً وتشع البهجة من عينيها ، وكان هو مستغرقاً في

نشوة صافية ، يداعب بيده شعرها وعنقها ، وذراعه تحيط بظهرها فتنتقل الى ساعده حرارة عذبة .

قال لها فجأة :

ـ يظهر ان الجماعة اصبحت تتذمر ، أليس كذلك ؟

فهزت رأسها وهي تضحك وقالت :

ـ فلتتذمر ما شاءت ، فلم اعد أبالي بها ، ولن يهمني ارضاؤها بعد الآن .

وضحك بدوره وهو يقول بسخرية :

ـ يخيل إليّ ان اكثر ما يسوء هؤلاء القوم انكِ صرتِ تتأخرين بين حين وآخر عن مواعيد حضورك الى الملهى .

ـ صحيح ، فقد ذاقوا في هذا الاسبوع مرارة الانتظار .

وسارع الى القول :

ـ ولو كان الانتظار بسبب أمر يسير لهان الأمر ، ولكنهم يعرفون ان تأخرك بسببي ، وهذا ما يزيد الأمر سوءاً .

وضحكا معاً ضحكة صافية بريئة صدرت من اعماق قلبها.

ثم قالت له المغنية وهي تقترب منه :

ـ وأسوأ من ذلك انني ، حين لا اراك في الملهى ، اختصر الاغاني ولا أكاد أنهي الرقصات ..

فنظر اليها نظرة عميقة وقال :

– أإلى هذا الحد تحبينني ؟

– الى ابعد من هذا .

وصمتا فترة طويلة ، كأنا على ثقة ان كل كلام لا يمكن أن يعبّر عما يجول في نفسيهما .

واخيراً قالت المغنية :

– لقد منحني التعرف اليك وحبك ، أملاً في الخلاص .

– هذا شعوري ذاته .

واضافت المغنية بجزم :

– لقد كان يخيل اليّ ان الخروج من هذه البلدة مستحيل . أما الآن ...

– لا بد أن نترك البلدة لنعيش معاً في مكان آخر ، سنعيش معاً الى الابد ، أليس كذلك ؟

قالت المغنية والكلمات تخرج من صميم قلبها :

– نعم ، ارجو ذلك ، واعتقد انه سيتم .

★

حين وصلت الى الملهى رأت العبوس في عينيّ عمها صاحب المقهى ، فأدركت انها تأخرت . كان الموسيقيون يعزفون انغامهم عزفاً مستمراً كي يبعدوا السأم عن نفوس الجالسين ، غير عارفين ان موسيقاهم كانت تحمل الى من في الملهى كل ضيق وضجر وملال .

١٠

انبعثت فجأة صرخات استغاثة واستنجاد ، وسمعت أصوات حادة عنيفة تصدر من كل مكان لتعم جو البلدة كلها . وتناهى الى غرفة المعلم ضجيج أثار الصمت المسيطر عليها ، فرفع المعلم شفتيه عن شفتيْ المغنية ، وسوّت هذه شعرها على عجل وقاما ينظران من خلال الباب الى هذه الضجة التي لم يسمعا مثلها من قبل ولم ترَ لها البلدة نظيراً قط . كان الناس يملؤون الشارع العريض الذي يقطع البلدة شطرين ، وكانوا يسيرون متعجلين كأنهم يسعون وراء شيء ، لم يكن المعلم والمغنية يريان إلاّ ظهورهم . اناس من كل الاعمار يركضون ويركضون ويحاول كل منهم ان يسبق الآخر ، وكان الهلع والألم يسيطران على حركات الناس كافة ، وكأن هذا الجم الغفير قد فرغ المقهى والمنازل والمخازن ممن فيها ، وقدّر المعلم أن البلدة كلها قد خرجت

الى الشارع . وحين انعطف الموكب في أحد الاحياء الجانبية لمح المعلم أحد الرجال يحمل على يديه فتىً صغيراً ، وخلفه امرأة تئن وتبكي وهي تقرع رأسها بقبضة يدها قرعات قوية عنيفة ، فأسرع يستطلع جلية الأمر ، وغاب دقائق شعرت المغنية أنها طويلة جداً ، ثم عاد يسير ببطء وفي عينيه آثار دموع :

– لقد غرق الفتى في النهر !

– أي فتى ؟

– أحد تلاميذي في المدرسة .

وأضاف وهو يمسح دمعة افلتت من عينيه :

– كان أفضل التلاميذ وأذكاهم . يا للمسكين ، لقد كان الوحيد الذي شعرت بتعاطف معه ، ولطالما تحادثنا معاً بعد انصرافنا من المدرسة ومررنا بحذاء النهر ، لقد كان قلبه نقياً كل النقاء .

وصمت المعلم ... ولكن البلدة ظلت تمور وتموج كأنها بحر هائج . لقد روعت بموت الفتى وزلزل هذا الحادث أمنها وهدوءها . وعاد المعلم والمغنية الى جلستهما في الغرفة صامتين ، وبعد هنيهة قالت المغنية :

– كيف غرق ؟

– يظهر انه كان يسير بجانب الضفة فزلت قدمه ولم

يستطع ان يتراجع فابتلعه النهر ، ولم يكن ثمة انسان ينجده أو ينقذه .

– من كان يظن ان هذا النهر البليد قادر على ابتلاع انسان ؟ لم يُسمع قط أن انساناً غرق في هذا النهر .

– ومن عجب ان يكون الغريق والضحية فتىً أحببته كل الحب .

ثم همس بعد فترة في اذن المغنية وهي تهم بالانصراف :

– لقد آلمني موت هذا الفتى كثيراً .. ما كان ينبغي له ان يموت . وزفر زفرة حادة وهو يقول :

– اني لأرى في هذا الحادث نذير شؤم !

وحاولت المغنية أن تخفف عنه ألمه وضيقه فلم تفلح ، وقبيل الليل ودعته وهي على ثقة بأنه لن يحضر هذه الليلة الى الملهى .

★

لم يكن صاحب المقهى جالساً جلسته المألوفة حين عادت المغنية، فدهشت لذلك وأقامت تنتظره حتى عاد وهو يلهث.

– هل علمت بالنبأ يا بنيتي ؟

– أجل .

وتنهد عمها تنهدة طويلة وقال :

– أرجو أن يمر الحادث بسلام !

لم تفهم معنى ما قال ، فسألته :

ـ ماذا تقصد ?

قال لها :

ـ لا أدري ، ولكنني أشعر ان هذه الكارثة التي روعت البلدة ، ستترتب عليها آثار سيئة .

ـ ولِمَ ? .

ـ هذا هو منطق البلدة ولعلك لا تعرفينه .

وتذكرت ما قاله لها المعلم ، فانقبض قلبها . وتساءلت :

ـ هل يغلق الملهى هذه الليلة ?

ـ كلا ، لا داعي لإغلاقه . ان الملهى لا يغلق لأي سبب كان .

كان يدرك انها راغبة عن الملهى والغناء هذه الليلة . ولكن لم يكن له أن يغلقه مهما كان السبب .

قال لها :

ـ الجماعة ستأتي على كل حال ، بل انها اليوم ، فيما اعتقد ، بحاجة الى مزيد من اللهو والغناء ، وستشرب ضعف ما اعتادت ان تشرب .

لم يكن صاحب المقهى مخطئاً فيما ذهب اليه . فقد بكرت الجماعة واستسلمت للشرب استسلاماً مروعاً . ونشط الموسيقيون على غير عادتهم وملؤوا الاسماع بموسيقا حادة

عنيفة حتى اوشكت الآلات ان تتحطم بين ايديهم .

كان مقعد المعلم خالياً ، إلاّ ان الجماعة لم تدهش لذلك بل أخذت تتغامز فيما بينها عن سبب غياب المعلم . كان الأمر واضحاً جلياً بالنسبة لهم جميعاً ، فالفتى احد تلامذته وهو مسؤول عنه . وقال احد الموظفين للصيدلي وهو يجرع الكأس الخامسة :

– كنت على يقين من ان هذا الرجس الذي حلّ بالبلدة ، لا بد ان يخلف وراءه عدداً من الضحايا ، وهذه أولها .

وأيد الصيدلي الذي كان يسند رأسه المتعب بيده ، كلام جاره وهو يقول :

– لا شك في ذلك ، لا شك !

لم يشعر احد من الجالسين ان صوت المغنية كان متهدجاً أو أن غناءها كان باهتاً ، أو حركاتها ضعيفة فاقدة لحريتها وانطلاقها المألوف .

وحين أغلق الملهى بابه الوحيد كانت خيوط الفجر تنتشر ببطء وحذر وترمي بحزم منها على صفحة النهر الذي اضطرب عصر هذا اليوم ، ثواني قليلة ، ثم عاد فاسترجع هدوءه ورتابته وصمته الأبدي .

عند ذاك اغفى المعلم بعد أن هدّه التعب والسهر

وحيداً في غرفته وقد لفّه الليل بطوله ينظر من نافذته الى النهر، ويسترق السمع فلا يتناهى اليه إلاّ الصمت ، الصمت العميق .

القسم الأول

مهما تكن الملهاة جميلة الاجزاء فان الفصل
الاخير غارق في الدماء .

باسكال

١

ـ انت موقوف !

نظر المعلم بدهشة الى هذين الجنديين اللذين اقتحما عليه غرفته في الصباح الباكر ، وهو لمّا يرتد ثيابه بعد ؛ لبث الجنديان جامدين لا ينبسان بحرف ، ولم يدر المعلم ماذا يفعل . وإذ امتد الصمت فترة ، رأى المعلم نفسه يقوم بهدوء فيرتدي ثيابه ويستعد للذهاب ، واراد ان يستوضح منهما سر هذا التوقيف ولكنه لم يجد امامه إلاّ وجهين صلبين جامدين لا يمكن ان ينبآه بشيء . وتأبط احد كتبه وهمّ بالسير ، فجاءه صوت احد الجنديين يقول :

ـ دع الكتاب هنا .

فامتثل لأمره ومضى فارغ اليدين ، يسير خلف الجنديين في طرقات البلدة الجانبية . لم يره احد وهو يسير وراءهما ، ولم يلمحه احد من خلال أية نافذة في الطرقات التي مرّ بها . كانت البلدة نائمة تغط في سباتها .

وانتهى بهم المسير الى مكان منفرد قريب من منزل الحاكم، فقدر المعلم في نفسه ان هذا هو المعبد الذي حدثه عنه الفتى فيما مضى يوم سارا بجانب النهر ، ولم يكن مخطئاً في تقديره .

ادخله الجنديان الى المكان الموحش وقال له احدهما وهو يهم بالخروج ويهيء القفل ليغلق به الباب :

– ستبقى هنا ريثما يستدعونك، حذار ان تحاول الهرب فالبلدة صغيرة جداً .

أقفل الجنديان الباب وراءهما وسمع صرير القفل القديم الصدىء وهو يثير ضجة وجلبة قاسيين .

لم يستبن اول الامر معالم المكان بوضوح لشدة الظلام ، ولما ألفت عيناه العتمة تبين بعض آثار المعبد التي يغطيها الغبار والتراب والاجزاء المتداعية من الجدران الخربة ، ورأى بعض العناكب بين خيوطها الكثيرة حتى لتؤلف نسيجاً صفيقاً ، واستطاع بعد لأي ان يعثر على لوح خشبي فوضعه فوق احدى الحجارة وجلس عليه يتفكر .

ماذا تراه فعل حتى اوقف على هذا النحو ؟ ومرت في ذهنه مئات الخواطر فكان يقلب كل أمر على مختلف وجوهه ثم لا يلبث ان يستبعده . لقد قام بالتدريس خير قيام طوال هذه الشهور السبعة التي امضاها في هذه البلدة ،

واستجمع ذاكرته فرأى انـه لم يخطىء مرة ولم يقصّر في أداء واجبه ولم يهمل تصحيح الوظائف واعداد الدروس ، ولم يتشاجر مع احد من زملائه ، ولم يقسُ على احد من تلاميذه . لقد كان يذهب في الوقت المحدد ويغادر المدرسة بعد انتهاء عمله . وراح يفترض شتى الافتراضات ، ولكنه كان يعرف انها مجرد اوهام لا حقيقة لها .

وفكر بالمغنية وعلاقته بها ، فاستبعد أن يوقف ، بهذه الطريقة المزرية لأنه يحب المغنية ، فالمغنية حرة في ان تحب من تشاء ، وهذا الحب نفسه لم يسيء الى انسان فيما يعتقد ، ولم يحرم جماعة الملهى من الاستماع الى الموسيقا والغناء طوال هذه المدة . صحيح ان المغنية كانت تزوره في غرفته بعض المرات وكان هو يزورها مرات اخرى في غرفتها التي تشبه غرفته ، ولكن هل يشكل ذلك جرمـــاً يعاقب عليه ؟ لقد كان يحبها ، وهل الحب جريمة في هذه البلدة ؟ ! ان عدداً كبيراً من الناس يحبونها ولم يحدث ان اوقف واحد وسجن في هذا المكان الرهيب لأنه يحب المغنية ، ولنفرض انهـــا لم تبادلهم حبهم بمثل الحرارة والعنف اللتين بادلته بها حبه ، فذلك لا يمكن ان يكون سبباً في توقيفه .

سهراته في الملهى ؟ ليس فيهـا أي حرج ، ففي الملهى يسمر كل ليلة ، عدد كبير من الناس ، ولم يكن لهم ما

يميزهم عنه في نظره، بل ربما كان اكثر اخلاصاً منهم للمغنية وأعمق عاطفة نحوها واصدق شعوراً .

وقضى ساعات طويلة يتفكر فلم يهتد الى سبب أو مبرر لهذا التوقيف المفاجىء .

لقد سهر امس في الملهى على عادته ، وزارته المغنية بُعيد العصر ، فأقاما يتحدثان حتى نسيا الوقت ، وتطرقا في حديثهما لغرق الفتى وألم المعلم الشديد لموت هذا الفتى . وعاتبته المغنية انه لم يحضر الى الملهى ليلة هذا الحادث الذي جرى منذ أسبوع ، فقال لها :

ـ كنت أشعر بألم حاد يسيطر عليّ لهذه الميتة القاسية.

واذ سألته أكان ألمك اكبر من شوقك اليّ وحبك .
قال لها بمنتهى اليسر :

ـ ان الألم أقسى دائماً من الحب .

فتألمت المغنية قليلاً ولكنه سارع الى استعطافها بقبلات حملت كل محبته وعاطفته العميقة الصافية نحوها .

واسترجع أيامه الماضية كلها وما قام به من أعمال فلم يجد إلا انه كان يسير وفق نظام مكرر رتيب لا يعدو التدريس وتناول الطعام والنوم واستعارة الكتب من المكتبة ، لم يزر أحداً ولم يزره أحد ـ باستثناء المغنية ـ ولم يسىء كذلك الى انسان ، ولم يسىء انسان اليه ،

فلماذا هذا التوقيف ، وفيمَ هـذا السجن كأنه مجرم عريق في الاجرام تريد البلدة ان تستأصله وتقضي عليه !

ثم منذا الذي اصدر الأمر بتوقيفه ؟ لقد مكث في هذه البلدة طوال هذه الشهور فلم يرَ أو يسمع ان انساناً واحداً أوقف أو سجن أو حوكم. لا شك في أن في البلدة قاضياً وحاكماً ، ولكن بدا له من خلال اقامته في البلدة انهما عاطلان عن العمل تماماً .

وحاول أن يصرف هذه الأفكار القاتمة عن ذهنه وراح يستعيد جلساته مع المغنية . كانت جلساته معها وأحاديثه وعلاقته بها كالواحة في هذه الصحراء الجافة . وكان يشعر معها كأنه يبحر على ظهر سفينة صغيرة في بحر جميل صافٍ هادىء ، يبعده عن كابوس البلدة بما فيها ومن فيها ، لقد استطاع ان يقضي على الرتابة بالمحبة . وها هو ذا الآن سجين ، متى ينتهي هذا التوقيف ؟ أيكون الجنديان مخطئين في اقتيادهما له ؟ ألعلهما كانا يريدان توقيف شخص آخر ؟ مجرم عثر عليه في البلدة . ولكن ليس من المعقول ان يكون الجنديان قد ارتكبا مثل هذه الخطيئة . لقد كانا يقصدانه بنفسه ، وكان أمر التوقيف موجهاً نحوه بالذات . وتذكر الفتى المسكين ونزهته معه على ضفة النهر ، لقد كان فتىً ذكياً عفوياً لا يشبه أهل البلدة في شيء .

وخطرت بباله آنذاك اخته البعيدة التي كان يحبها حباً عميقاً ، ويتعلق بها وبأسرتها الصغيرة كل التعلق ، لا سيما بعد موت أمه وأبيه المبكر. أتراه يلقاها ذات يوم ويضمها الى صدره كما ضمها ليلة الوداع قبيل مجيئه الى هذه البلدة ؟ ومتى يكون ذلك ؟

لم يصحُ المعلم من تأمـلاته إلا على صوت القفل يصرّ صريره الحـــاد القاسي . لقد جاؤوه بما يطعم ، وألقوه له دون أن يفتحوا الباب فتحـــاً كاملاً ، كما يلقى الطعام للكلاب الحبيسة ، ثم عادوا فأقفلوا البـــاب بعنف ، فلم يستبن وجه أحد ولم يتح له أن يحادث أحداً أو يسأله ولو سؤالاً صغيراً . ولم يجـد في نفسه رغبة في تناول الطعـام فعافه بعد أن ألقى عليه نظرة سريعة ، فتبين له أنه الطعام ذاته الذي كان يتناوله كل يوم في المطعم الوحيد في البلدة.

واستسلم آخر الأمر الى ان هناك جرماً يحوم حوله ولا شك ، وكاد يعتقد بأنه مذنب فعلاً ، وان كان يجهل هذا الذنب ، رغم الجهود المضنية التي كان يبذلهـــا عبثـــاً لاستبعاد هذه الفكرة عن نفسه .

★

لم يبـال أحد بتغيب المعلم ، فقد افتتحت المدرسة على عادتها ، وقام أحد المعلمين بتدريس صفه وصف زميله معاً.

ومضى كل الى عمله على عادته ، وافتتح المقهى ، ورصفت البضائع أمام المخازن ، واستغرق المسؤول عن المكتبة في كتابه الكبير يتابع قراءته ، وتابعت الساعة دقاتها ، واستمر النهر يجري جريانه المألوف الهادىء .

قالت المرأة لزوجها صاحب المطعم بعد ظهر ذلك اليوم:

– لن يأتي المعلم الى المطعم بعد اليوم .

فلم يجبها صاحب المطعم بشيء . ثم أضافت بعد قليل تقول :

– سيوصل اليه الطعام الذي اعتاد ان يتناوله .

فهز رأسه هزة العارف العليم وقال هامساً :

– اعتقد أن ذلك لن يطول .

وصمتا كلاهما معاً .

٢

في اليوم الثالث تحرك القفل وسمعت جلبة في الخارج ، لم يكن وقت الطعام قد حان آنذاك ، فأدرك المعلم ان أمراً هاماً ينتظره ، فجلس يترقب بشيء من الفزع والتشوق ثم رأى الباب يفتح على مصراعيه ويدخل الجنديان وخلفهما قاضي التحقيق الذي عرفه المعلم من شعره الابيض الشائب ورأسه الكبير . وما لبث القاضي ان صرف الجنديين بإشارة من يده فخرجا وأقاما قرب الباب الذي ظل مفتوحاً .

قال القاضي :

– لقد اتيت لاجراء بعض التحقيقات التي لا بد منها .

فسرّ المعلم . وبدا له ان قضيته قد حلت أخيراً .

وعاجله القاضي يقول :

– هل انت على استعداد للاجابة على أسئلتي ؟

– طبعاً .

وأخرج القاضي ببطء ورقة بيضاء كبيرة من محفظته الجلدية لم يكن المعلم قد لمحها حتى ذلك الحين وامسك بقلمه واستعد للعمل . كانت اسئلة القاضي تزيد في دهشة المعلم . اذن فلم يكن هناك خطأ في توقيفه .

– أأنت الغريب الذي جاء الى البلدة في اول العام ؟

– نعم .

– عمرك ؟

– واحد وعشرون عاماً .

– عملك ؟

– معلم في مدرسة البلدة .

وأشار القاضي ان ذلك كاف ، ففغر المعلم فاه دهشة . ثم قال له :

– لماذا أوقفت وما الجرم الذي اتهمت به ؟

فضحك القاضي ضحكته الصغيرة المهذبة وقال :

– أو تتجاهل التهمة الموجهة اليك ؟

قال المعلم وقد عيل صبره :

– وأية تهمة وجهت إليّ ؟

– أتجهل ذلك حقاً ؟

– انني اقسم على هذا !

فأخرج القاضي علبة التبغ وفتحها بتمهل وصنع سيكارة قدمها للمعلم الذي اخذها بسرعة ، مع انه لم يكن يدخن قط ، ثم عكف على صنع اخرى لنفسه ، وإذ انتهى منها وأعاد العلبة الى جيبه اشعل السيكارتين بعود ثقاب ثم قال بمنتهى الهدوء والحزم :

– انت متهم بقتل تلميذك ، الفتى الصغير !

– أنا ؟

كاد المعلم يصعق .

واضاف القاضي فوراً بغير اكتراث :

– لقد انتهى الأمر وأدِنت ، وقد أتيت لأخذ بعض المعلومات الشكلية المتعلقة بك وابلغك الحكم .

قال المعلم في نفسه وهو لا يصدق ما يسمع : عجيب أمر هذا التوقيف والادانة والحكم . وقال القاضي كمن يستيقظ من حلم فيفرك عينيه جيداً ليصحو الى نفسه :

– ولكن من أدانني ، ومتى حوكمت ؟

– آه ، لا تتعجل . لقد ادانتك البلدة كلها معاً . وحوكمت ، وحكم عليك يوم وطئت ارض هذه البلدة .

لم يفهم المعلم كلمة مما سمع ، فما كان منه إلاّ ان وضع رأسه بين يديه . كان احساس وحيد يعتلج في نفسه : ذلك بأن الموت اصبح قريباً منه جداً . لم يكن يريد ان

يموت ، وكان يقاوم هذه الفكرة طوال الايام الثلاثة الماضية .

وأحس بعد قليل ان القاضي يضع يده الباردة على جبينه الملتهب ويرفع رأسه ، وهو يقول :

— هل تريد ان تسمع القرائن والأدلة ؟

بهت المعلم ، فقال له من غير ان يستطيع ان ينظر اليه :

— نعم اريد ذلك ، ان كان ثمة قرائن وأدلة .

— اصغ إليّ اذن !

فأرهف المعلم اذنيه .

قال له القاضي :

— لقد كان الفتى صديقاً لك ، أليس كذلك ؟

نظر اليه المعلم وهو غير مصدق لما يسمع وأجابه :

— نعم ، ولكن تلاميذي كلهم اصدقائي .

فابتسم القاضي وقال :

— لا ، لا تغالط ، لقد كنت تشعر نحو هذا التلميذ بمودة خاصة .

— صحيح ، ولكن أي ضير في هذا ؟

— قلت لك لا تتعجل فلن تفقه شيئاً اذا تعجلت .

قل لي : ألم تسر مع الفتى بجانب النهر ؟

– نعم .

– لم تكن من عادة هذا الفتى ولا غيره الاقتراب من النهر ، وانت الذي شجعته على ذلك .

– لم اشجعه على شيء ، لقد مرت احادثه بعض المرات بجانب النهر .

– نعم ، نعم . وبينما كان يقترب من النهر في ذلـك اليوم وطىء الارض المبللة بالماء فعلقت فيها رجلاه ولم يستطع ان يعود ، وهكذا جذبه النهر .

– ولكن أية علاقة لي بهذا ؟

– انت المسؤول عن ذلك !

– أأنا المسؤول عن ذلك ؟

فأجابه القاضي بمنتهى البساطة :

– أجل ، هذا هو رأي البلدة .

– ومن تقصد بالبلدة ؟

ولم يجبه القاضي ، واستطرد يقول :

– هل تريد أدلة أخرى ؟

– وهل هناك أدلة أخرى ؟

– طبعاً ، اصغ إليّ ، لقد ثبت انك لم تكن في عداد الذين سارعوا لانقاذ الفتى أو حمله . كما ثبت انك لم تحضر دفنه ولم تعزّ اهله .

– ولكنني كنت في غرفتي ، وحين تناهت إليّ جلبة الناس كان الفتى ميتاً محمولاً .

– لا تنس ان غرفتك قريبة من النهر . ثم لماذا لم تذهب الى بيت اهله وتواريت عن الانظار ؟

– انني لا اعرف ، فأنا غريب أجهل معظم سكان البلدة ، فكيف اذهب اليهم ؟

– ليس هذا بمبرر . ثم لقد ثبت لدينا انك لم تذهب في تلك الليلة الى الملهى ، أليس كذلك ؟

– نعم لم اذهب الى الملهى لأنني كنت اشعر بحزن شديد لموت هذا الفتى .

فابتسم القاضي وظهرت ابتسامته الخفيفة الصافية وقال :

– أود أن اذكّرك بأن الكذب لن يفيدك في شيء.

– انني لا اكذب .

– اصغ إليّ : قلت انك كنت حزيناً . ولكن حزنك لم يمنعك من تقبيل المغنية ، أليس كذلك ؟

فأسقط في يد المعلم ولم يعرف بماذا يجيب .

وضع القاضي يده بعد برهة على وجه المعلم فأحس بالدموع تبلله . فربت على كتفه بحنان وقال له :

– لا تحزن. لقد حكم عليك أن تأتي الى هذه البلدة ، ولست انا ولا انت اللذين اصدرا هذا الحكم ، واليوم تحكم

عليك البلدة بالموت ، وليس لأحد دخل في ذلك ، فلا تأس .

واضاف بعد قليل :

ـ ليست حياة الانسان إلاّ فترة قصيرة يقضيها بين هذين الحكمين، وقد يرى بعض الناس انهما حكمان ظالمان، وقد يذهب آخرون الى انهما حكمان عادلان ، وقد لا تشعر فئة اخرى بهما اصلاً . وهذا ما علمني إياه عملي في القضاء طوال حياتي .

شعر المعلم بأنه يرتجف ، وبأنه يكاد يختنق ، فحوّل رأسه عن محدثه . كان قد اكتفى بما سمع ولم يعد يرغب في المزيد . لقد آمن بعد دخوله هذا السجن بيومين بأنه مذنب ، ولكنه لم يقدّر ان يكون عقابه الموت . والتفت مكرهاً الى القاضي يقول له :

ـ كنت اتمنى ان يحكم عليّ بغير الموت . بسجني مثلاً أو بنقلي الى بلدة اخرى .

فأجاب القاضي بلهجة مطمئنة هادئة :

ـ لا فرق بين سجن يمتد سنوات قليلة وسجن يمتد سنوات طويلة ، أما نقلك فماذا عسى ان يفيدك ؟ كل البلاد سواء ، أليس كذلك ؟

وهز المعلم رأسه وهو يشعر ان كل مناقشة ضرب من

العبث الذي لا طائل تحته .

فحنى رأسه كإنسان يستسلم لجلاد قاس وأغمض عينيه كمن يريد ان ينام .

ادرك القاضي ان المعلم استنفد كل ما لديه من أسئلة فطوى ورقته ووضعها في حقيبته ويمم الباب .

لم يسمع المعلم صوت القفل ولم ير انحجاب الضوء الضعيف الذي كان ينفذ من الباب المفتوح .

٣

ليس يدري كيف دخلت المغنية، ولكنه احس بحرارة تميس في جسده ، كان مبعثها يدا المغنية وهما تقتربان من يديه ، وبرقت عيناه ببريق الفرح ، فقد أدرك ان المغنية كانت امامه ، وكان واثقاً من ذلك قبل ان يرفع عينيه نحوها .

وبدت له المغنية فارعة الطول جميلة القوام وازدادت اقتراباً منه ، فأفسح لها مكاناً الى جانبه جلست عليه . وظلا برهة طويلة وهما صامتان وقد امسك كل منهما بيد الآخر . وكانت كل يد من ايديهم تخاف خوفاً حقيقياً صارخاً من ان تفلت من اليد الاخرى فلا تستطيع الامساك بها أبد الدهر . وتحدثت الايدي طويلا وكان في حركتها انين شوق وبحة محبة لا تجرؤ الكلمات ان تفصح عنها . واسندت المغنية رأسها الى كتف المعلم وهي تقول :

ـ لقد افتقدتك كثيراً طوال هذه الايام الثلاثـــة الماضية .

فازداد المعلم منها اقتراباً ثم قال :

ـ وانا ايضاً افتقدتك هنـا واشتقت اليك شوقـاً حاداً مؤلماً . وما اكثر ما تساءلت اين انتِ وماذا تفعلين ولماذا لا تزورينني وهل انتِ على علم بمكاني ؟

ـ آه ، لقد أنبئت بتوقيفك في الليلة الاولى ، ولكنهم لم يسمحوا لي بزيارتك إلاّ اليوم .

ـ لماذا ؟ لمــــاذا يحرمونني من رؤيتك ؟ يا لقسوة قلوبهم !

وأضاف يقول بحرقة :

ـ ثم يدّعون انهم عادلون !

هزت المغنية رأسها :

ـ لسنا نستطيـع ان نفعل شيئاً ، لقد قال لي عمي : هذه هي الحياة ، ولم استطع ان افهم كلامه أو اصدقه .

ـ ستصدقينه ذات يوم ، لا شك في ذلك !

ـ وأكثر ما ادهشني ان المدرسة والملهى والبلدة كلهـا لم تسأل عنك ولم تحاول ان تساعدك .

فأجابها بسخرية :

ـ ليس في هذا ما يدعو الى الدهشة !

ـ أما رواد الملهى فقد بدوا اكثر سروراً واستعادوا بعض مرحهم القديم أثر غيابك .

ـ طبعاً ، كنت اتوقع هذا فقد عدت ِ فأصبحت ِ لهم وحدهم ..

ـ لقد كانوا يخافون ، فيما قال لي عمي ، ان اترك الملهى ... وامضي معك .. واصبح لك ...

ـ كانت مخاوفهم صحيحة وأنت ِ تعرفين ذلك ، ولقد استعجلوا الامور كي يحافظوا على حياتهم التافهة أن يدخله في سيرها الرتيب فقدانهم المتعة التي يستشعرونها كل ليلة .

قالت المغنية بانفعال :

ـ وقضوا بذلك على الحلم الوحيد الذي كان يعتمل في نفسي من ترك الملهى والحياة معك وحدك .

ـ آه ، لا حب في هذه البلدة ، وكل حب مقضي عليه بالفشل. ولو لم يكونوا بحاجة اليك ِ لقضوا علينا معاً .

ـ ولكن هل تدري ان المغنية التي كانوا يعرفونها قد ماتت ودفنت الى الابد ، وان مغنيــة جديدة كئيبة لن تعرف الفرح الحقيقي بعد اليوم قــد ماتت على انقاضها . لقد ظللت مستسلمة للحيـــاة التي أريدت لي طوال السنين الماضية ، وكان يمكن ان اظل مستسلمة لها حتى موتي . ولكنك جئت ذات يوم لتوقظ نفسي المغلقة ، وهكذا

تفتحت نفسي للمحبة الصحيحة العميقة التي ما عرفتها قط . وما كان ذلك إلاّ حلماً قصيراً جميلاً ، أيها الغريب لماذا أتيت توقظ قلبي ؟!

ـ كنت بحاجة اليكِ وكنتِ انتِ أيضاً بحاجة إليّ . أتعرفين ، يخيل إليّ احياناً انه كان ينبغي ان اسمع نصح عمك وكلام المسؤول عن المكتبة حين حذراني من عالم الليل وسلطانه . ولكنني اعود لأقول لنفسي انني لست نادماً ، بل ان محبتي لكِ هي افضل ما قمت به في حياتي ، ولقد تفتح لي عالم الليل هناك على اجمل ما في الحياة من معنى واتاح لي ساعات هي وحدها التي لها قيمة طوال اقامتي في البلدة .

ـ لقد بذلت بعض الجهود لأنقاذك وسأبذل جهوداً أخرى .

ـ لا حاجة الى ذلك ، فالقضية منتهية .

ـ لا تستسلم لليأس ، فمن يدري ...

ـ بدا لي كل شيء واضحاً كالنور منذ جئت الى هذا السجن ، فقد كان وجودي رجساً ومحبتي جرماً ولا بد للبلدة من ان تطهر الرجس وتعاقب الجرم لكيلا يقضيا عليها ...

ـ ولكنني أؤمن انك بريء مما اتهمت به .

ـ وأنا أؤمن بذلك ايضاً ، ولكن ما قيمة ايماننـا ؟ إن الايمان لا سلطان له في هذه البلدة .

ـ سأسعى لمقابلة الحاكم ، لقد جهدت ان اقابله خلال اليومين الماضيين فلم أوفق الى ذلك ، ولكنني سأقابله مهما كلف الامر .

ـ لن تفيد مقابلته في شيء . يبدو لي انني أسأت اليه خاصة إذ احببتك .

أطرقت المغنية صامتة مذهولة من كلام المعلم. ثم طوقت رقبته بذراعها وطفرت دمعات حارة من عينيها فلم تمسحها ، بل تركتها تنسال على وجهها وتتساقط على ثوبهـا . واخيراً همست في اذنه تقول :

ـ لم اصدق انا وعمي تهمة مصرع الفتى ، وقـــال لي عمي : لا بد ان يكون هناك شيء غير موت الفتى .

ـ وانا كذلك لم اقتنع بهذه التهمة ، ولكن موت الفتى ليس إلا رمزاً بالنسبة لجماعة الملهى.. وقد انكشفت لي حقيقة الرمز وانا على ابواب هذه الرحلة الاخيرة .

وعاد كلاهما الى الصمت من جديد . لم يكن هنـــاك إلا شعور الخوف يغمر نفسيهما معاً . كان المعلم في خوف من الموت ، وكانت المغنية في خوف من الوحـدة الجديدة القاسية المقبلة التي ستنغمس فيها ، وخطرت لها فجأة فكرة

لم تمر ببالها قط : ماذا لو مات عمها ؟ لقد طعن في السن واصبح قريباً من نهايته .

ورفعت صوتها تقول للمعلم :

ـ ماذا لو مات عمي ؟

ـ ستعتصرك البلدة حتى تستنفد قواك ، ثم تطرحك آنذاك .

ـ آه ...

أخذت المغنية تنشج ، لقد ادركت في تلك اللحظة فقط كيف ماتت أمها ، والغموض الذي أحيط به موتها ، والابهام الذي يتعلق بأبيها ، فراحت تصرخ من غير ان توجه صراخها لأحد ، ولعلها كانت تصرخ في وجه البلدة كلها :

ـ ولكنني لن انجب للبلدة مغنية بعدي ، لن افعل ذلك .

راح المعلم يهدىء ثائرتها ، وقد بلغ به الضيق والحزن في تلك اللحظة أقصى ما يمكن أن يبلغه الضيق والحزن . ولكنه اقبل مع ذلك يمسح دموعها وينقل الى وجهها حرارة يديه وبؤسها واضطرابها .

ثم قال لها بعد فترة :

ـ خففي عنك هذا الحزن ، لسوف يتحقق كل ما

ينبغي ان يتحقق ، وليس يستطيع احد في هذه البلدة ان يخالف أمر حاكمها ، ألم تري إليّ ؟ لقد جئت مكرهـاً الى هذه البلدة ، لم يستشرني احد في المجيء ، وهـاأنذا اذهب مرغماً عنها ، لم يستشرني احد في الذهاب كذلك ؟ وبين مجيئي وذهابي ومضة صغيرة هي تعرفي بك .

وليس عدا ذلك كله إلا الضيق والرتابة والملال والعبث الذي تعرفين . لسوف تنجبين طفلة للبلدة ، وستتعهدينهـا منذ صغرها وتنشئينها على الغنـــاء والرقص ، هذه مشيئة الحاكم .

ثم رفع بصره نحو قبـة السجن الذي كان مَمِيداً فيما مضى فرأى ضياء ينبعث من كوة صغيرة لم يكن قد لحظها طوال الايام الثلاثة التي قضاها مستغرقاً مطاطيء الرأس الى الارض .

فقال للمغنية فجأة وصوته يحمل رنة فرح :

ــ أصغِ إليّ ، لقد لبثت ساعات طويلة استرجع اغنية من الاغاني التي كانت تنشدها لي أمي في طفولتي، فلم أوفق الى تذكـّرها ، وها هي ذي تبرز فجأة في ذاكرتي كما برز هذا النور فجأة امام عينيّ .

ــ وما هي هذه الاغنية ؟

ــ كانت الاغنية تقول :

« لا ذنب لي ، لا ذنب

إلا حبي العظيم ! »

– انها لأغنية قديمة لم يعد أحد يرددها .

– انني لاسترجع الآن صوت أمي ويتاح لي بعد هذه السنوات كلها ان افهم معنى هذه الاغنية .

★

دخل الجنديان يعلنان ان موعد الزيارة قـــد انتهى ، فلبرغمـا الجالسين تحت النور الخفيف المنبعث من العتبـة ان بينهما قبلتهما الطويلة الحارة وأغلق الباب من جديد .

قام المطر يخطو بضع خطوات في المكان وهو يترنم بهذا اللحن الكئيب الذي يعود الى عهد طفولته .

وإذ قدم له الطعام وجد نفسه ينكب عليه بنهم ، فقد كان يشعر بجوع شديد ولم يطرحه جانباً هذه المرة كما فعل فيما مضى ...

٤

كانت المغنية قد بيتت ان تحادث الحاكم وتستعطفه وتبذل كل جهدها لتنقذ المعلم ، وقدّرت ان تقوم بذلك إبان زيارته الاسبوعية لها . وقد استعدت لها استعداداً دقيقاً ، وما أن انتهت السهرة واغلق الملهى حتى جلست في غرفتها تنتظر قدوم الحاكم ، وكم كانت دهشتها كبيرة كبيرة حين اسفر الصبح ولم يأت الحاكم لزيارتها . لقد تخيلت كل شيء، ولكن تغيب الحاكم لم يكن في حسبانها. أي سبب حمله على التخلف وهو لم ينقطع مرة عن زيارتها ؟ لقد اعدت نفسها للدفاع عن المعلم ووطدت العزم على مناقشة الحاكم ومجابهته ببراءة المتهم . كانت مصممة على ان تبذل كل وسعها لانقاذ المعلم ، وكانت تعرف في الوقت نفسه ان الحاكم قادر ان يعفو عنه ويعيد كل شيء الى ما كان عليه . ولكنّ هذا التغيب الذي بدا لها متعمداً قد

ضاعف ألمها . هل قدّر الحاكم انها ستفاتحه في هذا الموضوع فآثر عدم المجيء ؟ هل خطر بباله ان المغنية لن تلبث صامتة هـذه الليلة وستخالف مـا درجت عليه من التزام الصمت والاستسلام لأنفاس الحاكم اللافحة ؟

وراحت تحرك يديهـا بغيظ وهي تكاد تنشج ضيقـاً وغيظاً . هل يريد الحاكم ان ينزل بها عقابه ايضاً ؟ أم أراد أن يحملها على الصمت حملًا ، ويفهمها ان الكلام في هذا الموضوع محظر عليها ؟ !

★

لم يعجب الناس حين رأوا المغنية تقترب من قصر الحاكم فقد كانوا يقدرونها انهـا لا بد ملتجئة اليه تطلب مساعدته لإنقاذ الشاب الذي تحبه ، إلاّ أن ابتسامة خبيثة ماكرة ارتسمت على شفاه بعض منهم فمضوا لشأنهم وهم يهزّون رؤوسهم ...

حين طلبت الى الجندي المكلف بحراسة القصر ان يسمح لها بالدخول رفض طلبها وافهمها ان الحاكم لا يستقبل احداً من الناس ولا يكلم احداً . وقد لبثت ساعة وساعة ترجو الجندي وتستعطفه ، ولكنه كان يعرض عنهـا ، واوشك ان يضربها آخر الأمر . ورجته اخيراً ان يبلغ الحاكم ان المغنية واقفة بالبـاب منذ ساعات تلتمس رؤيته ، ونزل الجندي عند الحاحها ودخل القصر لحظة ليعود بعدها ويعلن

للمغنية أن الحاكم يرفض مقابلتها ويطلب اليها عدم التدخل في شؤون لا تعنيها .

ولم تجد المغنية بدآ من الاذعان ، فعادت ادراجها منكسرة القلب حيرة . أهكذا يعاملها الحاكم وقد أنّ كل جزء من جسدها تحت وطأته ساعات ؟ وبدت لها البلدة موحشة رهيبة تكاد تمسك بخناقها لتكتم انفاسها ...

قالت للجندي :

– أين أجد القاضي ؟

– في منزله .

وأشار الى منزل القاضي . كان على مقربة منها فتوجهت صوبه تحث الخطى .

لم يكن هناك احد بحرس المنزل ، فقرعت الباب باضطراب وضيق ، وقرعته مرة ثانية وانتظرت طويلاً قبل ان يفتح الباب ويطل منه رأس القاضي بشعره الأشيب .

– ادخلي .

دخلت المغنية ، ولكنها لم تستطع ان تخطو خطوتين فوقفت في الرواق وكأن هناك ما يسمر قدميها في الارض .

– ادخلي ، ما الذي جاء بك الى منزلي في مثل هذه الساعة ؟

كان القاضي يعلم حق العلم سبب مجيء المغنية ، ولكنه آثر أن يتجاهله .

– لقد جئت من اجل المعلم .

قال القاضي وكأنه يتذكر أمراً قديماً موغلاً في القدم :

– آه ، المعلم ، فهمت ....

وصمت . فازدادت المغنية ارتباكاً وضيقاً ثم استجمعت شجاعتها لتقول له :

– انت القاضي في هذه البلدة ، ولقد حكمت على المعلم ...

فقاطعها القاضي بهدوء :

– لا ، لم احكم عليه انا ، هناك الحاكم ، وهناك البلدة ايضاً ، وهناك كذلك سنّة الحياة ..

– انت المسؤول عن هذا الظلم ، كيف تسمح بأن تُرتكب امام سمعك وبصرك مثل هذه الجريمة في البلدة ؟

– ليس موت المعلم جريمة ، انه جزاء وفاق لما قدمت يداه .

– هذا افتراء وكذب بحت ، وانت تعرف كما يعرف سواك حقيقة كل شيء ، كيف تسمح بأن يموت ؟ كيف ؟

قدم لها كرسياً وطلب اليها الجلوس ، لقد لاحظ انها مرهقة الاعصاب متوترة فحاول ان يهدئها :

– هدئي روعك ، فلست استطيع شيئاً ، وانتِ كذلك لست تستطيعين ان تفعلي اي شيء . ستتم الامور كما قدر لها ان تتم . حاولي ان تنسي هذا وتعودي الى سابق حياتك .

– ولكنني لا استطيع ان انساه ، لقد اصبح جزءاً من نفسي ولست اقدر ان اتخلى عنها !

– ستعتادين على ذلك كما اعتدت على الحياة ، سيبدو لك ذلك صعباً الآن ، ولكن مع الزمان ...

وشرد بصره لحظة ثم قال :

– انت تعرفين ان الزمان قادر على كل شيء ..

احست المغنية بالدموع تطفر من عينيها فجأة ، أكان ذلك لأن كلام القاضي قد آلمها ، أم لأنها شعرت أن جزءاً من نفسها سيموت؟ أم ادركت اخيراً أنها عاجزة عن القيام بأي عمل نحو ذلك الانسان السجين . ورأت نفسها تهتف بصوت ينبعث من اعماقها :

– أتقتلونه لأنه أحب كثيراً وأحب بعمق ! يا للقسوة !

– هذه هي الحياة فلا تجزعي !!

واذ رأى ألم المغنية وحزنها الشديد ، مال اليها يربت على كتفها وهو يقول ، بصوت حمل ضعف شيخوخته :

– ثقي يا ابنتي ، لو كنت استطيع ان افعل شيئاً

من اجلك لما تأخرت في ذلك ، ثقي بهذا على الاقل ، وستفيدك ثقتك بما اقول في مستقبل ايامك . وها انا اقول لك بصراحة بأنني تمنيت الآن ، من اعماقي ، وأنا على أعتاب شيخوختي ، مساعدتك ولو استطعت ذلك لكانت هذه المساعدة عملاً جميلاً اقوم به لمرة واحدة خلال حياتي ، ولكنني عاجز عن القيام بأي عمل .

لم تعرف المغنية مدى صدق كلام هذا الرجل ولكن هذا التعاطف حمل اليها قليلاً من الهدوء فجلست صامتة برهة ووجدت نفسها تقول له فجأة وهي تحاول الا تصدق :

– وهل سيموت حقاً ؟

فأجابها بحرقة :

– أجل سيموت وسيسحق كما يسحق الصرصار .

فأطرقت رأسها تحاول ان تفهم معنى هذه الكلمات ، ثم نهضت تهم بالخروج والتفتت الى القاضي :

– انه بريء !

فهز القاضي رأسه وهو يقول :

– ليس هناك انسان بريء .

واذ اغلقت الباب وراءها لبث القاضي واقفاً خلف الباب مرهفاً اذنه لسماع وقع قدميها على درجات السلم وفوق ارض الشارع ، وظل على هذا النحو مدة غير قصيرة ،

واخيراً دخل الى غرفته وهو يقول :

– ومن يدري ، لعل البلدة تريد ان تقتله لأنه بريء فعلًا !

وجلس على كرسيه الوثير مستسلما للكآبة وضيق حادين .

★

قالت المغنية لعمها الذي كان ينتظرها في المقهى بلهفة :

– لم اوفق الى شيء ، لقد رفض الحاكم مقابلتي ، ونصحني القاضي بأن انسى كل شيء . ولم يسمح لي بزيارته .

وسرعان ما ارتمت على احد الكراسي منهوكة القوى. تطلع اليها العم بكثير من الرثاء . فقد كان يعرف أن مسعاها عبث وكأنها في محاولتها انقاذ المعلم طفلٌ صغير يريد أن يحمل الارض على كتفيه الواهيتين .

ثم قالت المغنية بصوت حاد ، دون ان توجه كلامها لأحد :

– لن اغني بعد اليوم ، ولن يراني انسان هنا .

فلم يجبها بكلمة وقال يحدث نفسه : فلتقل ما تشاء فلن اناقشها ، لقد بلغت من الغضب والألم والحسرة الذروة . وها هي ذي تبدو تائهة، قد اضاع الالم صوابها، على وشك ان يغمى عليها .

وسارع الى حملهـــا مع الخادم الى غرفتها ووضعها في سريرها والقى عليها نظرة ملؤها المحبة والاشفاق والرثاء وهو يتمتم :

– ينبغي ان تنامي الآن ، فقد سهرتِ الليل كـله لم يغمض لك فيه جفن .

وعاد الى جلسته ينفث دخانه بتؤدة كبيرة .

٥

أيقظته الصخرة التي سقطت بالقرب منه ، من حلم كان مستغرقاً فيه منتشياً به ، فقد رأى القبة التي فوقه تنكشف عن جو أزرق صافي الزرقة ، ثم رأى نجوماً ذهبية تتساقط بغزارة تساقطاً متتابعا ، فتملأ الأرض حوله ببريق متوهج وضاء . واستمر فترة ينظر الى هذا الفيض من النجوم التي تتساقط أمامه وحوله وهو في دهشة وسرور يود لو يمسك بها . وكان خيط أسود غليظ يتموج تموجاً افقياً أمامه ثم لا يلبث ان يختفي ليعود بعد لحظات ، والنجوم مستمرة في تهاطلها كقطرات من المطر لا تنضب ، وبرزت أمام عينيه في الجهة اليمنى من السماء امرأة متلفعة بثوب أزرق طويل يلف جسدها كله . وكانت ترنو اليه باسمة ولكنه لم يستطع أن يتبين وجهها أو يتعرفها . وظلت تبسم له بحنان . ثم ما لبثت أن اختفت وعادت النجوم توالي سقوطها السريع المتتالي .

وقام مذعوراً لصوت سقوط الصخـرة وأحس بالعطش فصرخ :

ـ أنا عطشان !

وخيل اليه أن الجنديين المكلفين بحراسته سيسارعان على عادتهما لاعطائه الماء ولكنه لم يسمع نأمة ولم يجد من يلبي نـــداءه ، فاستمر يصرخ مرة ومرة وابتلع المكان صوت صراخه وصداه ، ووجد نفسه يتحسس عنقه براحة يده ، كان عنقه يؤلمه وحاول أن يصرخ :

ـ لماذا تركتموني هنا ؟؟

ولكنه لم يستطع أن يرفع صوته ولا أن يصرخ ، فقد جفت الكلمات في حنجرته فجلس بفزع على الأرض ، وأراد أن ينـــادي المغنية لتساعده وتعضده وأن يستصرخ البلدة أو أحداً منها ، أو الجنديين القريبين منه ، ولكنه ادرك ان الجميع قد تخلوا عنه في تلك اللحظة الرهيبة .

وآنذاك بدأت الصخور تتساقط حوله من النوافـــذ والكوى التي لم يكن قد رآها قط . فحاول أن يتجنبهـا أول الامر ، ولكنه ادرك أن مـا من سبيل للهرب منها . فقد تحاشى الصخرة الاولى والثانية ولكنه لم يستطع تحاشي الصخرات التالية فسقطت واحدة على رجله وأصابت اخرى يده ، وراح يهيم في محبسه كحيوان مذعور مثار ، وتوالى

سقوط الصخور فوقه ، وأحاطت بـــه من كل جانب ، وانبجست في ذهنه صورة قديمة ، موغلة في القدم كان قد رآها في مكان ما لم يعد قادراً على تذكره .

لقد برزت هذه الصورة أمامه فجأة ، فرآها بوضوح تام ودقة شديدة كأن نوراً باهراً قد ملأ المكان وأضاءهـا . أكانت صورته هو أم كانت مرآة تعكس وضعـه ذاك ؟ وبذل قصارى جهده ليتعرف الوجه في هذه الصورة ولكنه عبثاً حاول ذلك ! كان رجلاً نحيل الجسم طويل القـــامة شبكت يداه احداهما بالاخرى وقيـدتا بالسلاسل الى عمود ابيض كبير ، كان عاري الجسم إلا من قطعة قماش تستر عورته ، وكانت سهـام قد أصابت جسده العاري وخلفت وراءها بعض الدماء .

كان الرجل يتلوى من الالم ، ورأسه منحن على جسده . وأحس انه هو أيضاً يتلوى ألماً بين الصخور وهي تتابع سقوطها المنتظم ، فيموج تحت وقعهـــا كأنه بحر هائج صاخب ، واستمر سقوط الصخور ساعات والمعلم يرزح تحتها ألمـــاً ، وتنزف الدماء من جراحه حتى انبسط على الارض لا يستطيـع حراكاً . وقال بصوت متقطع أبح كأنه ينبعث من اعماق الارض :

— لقد تم كل شيء !

وظلت الصخور تنهمر فوقه وراحت تبطىء في سقوطها شيئاً فشيئاً حتى غطته وملأت جراحه بفتاتها فتدثر بدثار الارض واستسلم للسبات العميق .

وسدت الكوة في القبة التي كان ينفـــذ ضوء خفيف وسيطر على المكان الظلام الابدي العميق .

٦

كان صاحب المقهى ينتظر عودة الخادم بفـارغ الصبر . أمـــا سائر أهل البلدة فقـد انصرفوا الى اعمالهم وشؤونهم اليومية . ولبث صاحب المقهى ينتظر حتى عاد الخادم اخيراً يجري مسرعاً فدخل المقهى وتوقف وهو يلهث، وإذ استرد أنفاسه اقترب من صاحب المقهى الذي كان يتلهف لسماعة، قال له الخادم :

– لقد انتهى كل شيء .

– نهائياً !

– نعم .

فارتسمت على وجه الرجل الكهل علامات ألم هادىء ، وقال للخادم بصوت خافت مع ان المقهى كان خالياً :

– والغرفة ؟

– لقد دخلها الجنديان وفتشاها ، فأخذا الكتب ، كل

ما رأياه فيها .. وقدماها للمسؤول عن المكتبة ، بما فيها كتب المعلم الخاصة ..

– والثياب ؟

– لقد تقاسمها الجنديان تقاسماً عادلاً .

قـــال صاحب المقهى في نفسه : « آه ؟ ليت المغنية احتفظت بقطعة منها » .

وأضاف الخادم :

– لقد عثر في محفظته على ورقة مطبوعة قديمة .

– وماذا فيها ؟

– انها تحمل أمر تعيينه في هذه البلدة .

فهز الرجل الكهل رأسه ، ثم سأله :

– وماذا فعلوا بهذه الورقة ؟

– لقد ارسلها الحاكم صباح اليوم مع ورقة أخرى الى المسؤولين كما قال لي أحد الجنديين وكان في الورقة الثانية إعلام لمن يهمه الأمر بموت المعلم .

فقال صاحب المقهى :

– اذن فهذا كل ما يمثل المعلم : ورقة تعيينه ، وورقة نعيه !

ثم أضاف بعد قليل :

– ليته اشار الى ان مـا جرى بين تلك البداية وهذه

النهاية قليل من الحب وكثير من الألم .

وإذ أروى الرجل الكهل فضوله وتساؤله جلس جلسته المألوفة أمام منضدته الكبيرة واستسلم لحزن هادىء وتفكير غائم بعيد المدى .

★

رأت الجماعة التي اعتادت السمر في الملهى كل ليلة ما أدهشها وأفزعها ، في الليلة الاولى وفيما تلا الليلة الاولى . كانت أغان كئيبة تأخذ بخناق الجالسين وتكاد تحملهم على البكاء وهي تعتصر افئدتهم اعتصاراً . وكانت تبدو المغنية أمامهم ، إذ يحين موعد الرقص ، كائناً جديداً يختلف كل الاختلاف عن المغنية التي عرفوها . كانت ترقص وهي شبه عارية ، وكانت حركاتها أشبه شيء بحركات طائر جريح ينازع انفاسه ، ولم يكن يدري الجالسون أكانت هذه رقصة الموت، أم تشنج سجين يضرب بالسياط . ولم يكن أحد لينبس بكلمة ، لقد شعروا أن جواً جديداً خانقاً يسيطر عليهم ، وقدروا ان هذا الجو الجديد سيفرض عليهم الى الابد . ولكنهم لم يجرؤوا على إثارة أي اعتراض أو تساؤل . ومن يدري فلعلهم كانوا قد فهموا ، في صميم نفوسهم معنى ألم المغنية ومرّ شكواها وحزنها . ومهما يكن من أمر ، فقد عزموا على الحياة في هذا الجو الجديد الذي

فرضته المغنية على الملهى وركنوا اليه حتى ألفوه بعد عدد من الايام ، كما أن المغنية نفسها ألفت رقصتها وغدت يوماً بعد يوم اكثر انسجاماً وتلاؤماً مع حركاتها في تعبيرها عن الحزن والألم . ألا يصبح الألم نفسه مع الزمن قوتاً يألفه الانسان فلا يغص به كثيراً ؟

ولقد شعر الجميع أن القاضي قد تخلف عن الحضور ، فأدركوا أنه مصمم على عدم المجيء وان قدميه لن تطأ أرض الملهى أبدَ الدهر وظل المكان الذي اعتاد المعلم أن يجلس فيه فارغاً خالياً، ومع ثقتهم بأن المعلم أصبح بعيداً جداً عن الملهى، فقد كانوا يرقبون مكانه بين حين وآخر ، بل أن بعضاً منهم كانت عيونهم لا تكل عن النظر الى الطاولة الخالية، وكأن قوة تجذبهم للنظر اليها ومراقبتها حتى لفتت انتباه صاحب المقهى والمغنية . هذه النظرات التي لم تكن تصدر عنهم أيام كان المعلم يسهر في هذا الملهى ، ودهشا لهذا التطلع المستمر الى ركن المعلم الفارغ، ولكنهما لم يعلقا بكلمة على ذلك كله .

★

وكما تحدث صخرة تلقى في الماء تموّجات ودوائر كثيرة ثم لا تلبث أن تستقر في الاعماق ، فتختفي الدوائر وتهدأ صفحة الماء، هكذا ابتلع الصمت الدوامة الصغيرة التي أثارها

المعلم بوجوده في البلدة ، فاستعادت هذه بعد قليل حياتها الرتيبة ، وتابع النهر سيره الممل المألوف الذي بدأه منذ الازل وهو يغذ السير ليبلغ نهاية وجوده فلا يجد الى ذلك سبيلاً . وعادت المغنية الى حياتها السالفة تقضي نهارها سجينة غرفتها فلا تخرج منها قط ، ولم يرها احد تقصد غرفة المعلم أو تتجول بحذاء النهر ، وكان عمها صاحب المقهى وحده يعرف انها كانت تأرق بعض الليالي فلا تعرف للنوم طعماً، كما كانت في ايام عابرة تجهش بالبكاء لغير ما سبب وتنبجس الدموع من عينيها حارة سخينة، ثم لا تلبث أن تجف فوق صفحة وجهها وتغيض . وكانت في مرات قليلة جداً تتلوى ألماً كأن سهاماً حادة تنغرز في جسدها اللدن ، وما عدا ذلك فلم يكن يسيطر على البلدة إلا الهدوء المعروف والرتابة المعهودة .

وظلت الشمس تشرق وتغيب على عادتها وساعة البلدة تتحرك عقاربها لتحدد مواعيد عمل الناس وشؤونهم .

١٩٦٢/١٢/٢٦

بيروت ـ مطبعة حكوم ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢